الطبعة الثامنة

488

أنيس منصور

تكلم حتى أراك





تكلم
حتى أراك

تساءل أحد قـراء الجريـدة: ولـمـاذا أنيس منصور؟! أي لـمـاذا يكتب في هذه الصحيفة؟! أو ما حاجتنا إليه؟! ومعه حق ومعي حق أيضًا. فأنا يا سيدي كاتب مصري، تخرجت في كلية الآداب، وتخصصت في الفلسفة، وأصدرت 215 كتابًا، وترجمت ثلاثين مسرحية، وألفت عشر مسرحيات، ولي عشرون مسلسلاً، وأكتب بابًا يوميًا اسمه (مواقف) في صحيفة الأخبار، والآن في الأهرام من أربعين عامًا، ورأست تحرير عدد كبير من المجلات، ورأست مجلس إدارة دار المعارف، والآن رئيس تحرير مجلة الكاتب المصري التي كان يرأسها طه حسين، وأنا عضو بمجلس الشورى من ثلاثة وعشرين عامًا، وعضو المجلس الأعلى للثقافة، والمجلس الأعلى للصحافة، ومجلس إدارة الهيئة المصرية للكتاب، وأخيرًا مستشار الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية، وحصلت على العديد من الجوائز، وحججت سبع مرات، وكانت أطول رحلاتي (حول العالم في 200 يوم). وأعرف مجموعة من اللغات.

ولا أدعي يا سيدي أن كلماتي قد نظر إليها الأعمى ولا قد أسمعت من به صمم كما يقول المتنبي ..هذا أنا .. وأعوذ بالله من يوم لا أقول فيه أنا !

Sat.
22/7/2017

6 221133 339612

للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group
YouTube

دار نهضة مصر
للنشر

A.M.

أنيس منصور

تكلم حتى أراك

دار نهضة مصر
للنشر

كيف يختار الحكام رجالهم؟

عندي تجربة على أعلى مستويات الحكم في بلادي، لقد اقتربت جدًّا من الرئيس السادات، أطلبه في التليفون يوميًّا عدة مرات وأراه في الأسبوع ثلاث وأربع مرات، وأفطرت وتغديت وتعشيت معه. ورأيت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وسمعت القرار هادئًا وغاضبًا وساخطًا، ولم يدهشني القرار وإنما حيثيات القرار.

رأيت رجالاً حول الرئيس يقولون: فلان هذا كويس جدًّا، ولكنه مع الأسف يضرب أمه! أعوذ بالله! يضرب أمه؟ فعليه اللعنة! ولكن أحدًا لا يتحقق إن كان يضرب أمه أو هي التي تضربه.

وسمعت من يقول على مسمع من الرئيس: أعوذ بالله، فلان هذا ياساتر يارب، امرأته أسوأ خلق الله. ومن يومين سمعت أحد أولاده يكلم شابًّا في أحد الأندية وقال له، وليس رأيه وإنما هو رأي أبيه، في السياسة وفي الحكم.

المعنى: إن هذا الشاب يردد كالببغاء رأي أبيه في الحكومة والحاكم، وإن هذا الرأي سيئ، فأبوه إذن سيئ، وليس هو الرجل المناسب في المكان المناسب.

وسمعت: فلان لص. صحيح أخوه تعلم في أمريكا، وبس!

يعني هو لص فكيف لا يكون أخوه الذي تعلم في أمريكا لصًّا؟! القرآن الكريم يقول: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، هذا كلام إخوة يوسف، وهو كلام ظالم، ولكن هذا ما يقوله الناس عادة. يعني أن الأخوين من اللصوص «وإذا كان الأول لصًّا فالثاني سوف يكون».

ما المعنى ؟ المعنى أن الحاكم أحيانًا يختار الناس من الذين حوله، يسألهم الرأي، ويسأل أجهزة الأمن أيضًا. ومن هذه الآراء يبني قراره أحيانًا. فهو ينظر في دائرة الضوء حوله ويختار ثم يقرر.

هناك نكتة سمعتها في أحد الكازينوهات الألمانية: ظهر رجل سكير يترنح يبحث عن شيء ضاع منه، وراح يلف ويدور حول مصباح الشارع، فجاءه أحد رجال البوليس يسأله: عن أي شيء تبحث؟ قال: عن مفتاح البيت. سأله: هل سقط منك هنا؟ فأجاب: بل في أول الشارع، فسأله: ولماذا تبحث هنا؟ فأجاب: إنه المكان الذي به الضوء!

فالحاكم أحيانًا يبحث عن الذي يريده، لا في المكان المناسب، وإنما في المكان الذي به النور، في دائرة الضوء حوله، وقد يصيب وقد يخيب، ولكنه غالبًا لا يصيب!

والحل؟ لا حل. فالحاكم إنسان أيضًا يتعب ويزهق ويمل ولا يستطيع طول الوقت أن يقرر بعد أن يقرأ ويبحث في مسوغات التعيين ومبررات الاختيار!

فوق أكبر خازوق في مصر

في سنة 1960 أصبحت رئيسًا لتحرير مجلة (الجيل).. ربما كانت مكافأة على رحلتي حول العالم التي نشرتها في كل صحف ومجلات «أخبار اليوم» لأكثر من مائتي يوم.. وكنت قد فرغت من الرحلة وأويت إلى حضن دافئ في مدينة (بور توفينو) الإيطالية، وأدهشني أن علي أمين عرف مكاني، ولكنها غلطة وقعت فيها عندما قلت لأحد أصدقائي عن مكاني، وكانت مكالمة علي أمين سريعة خاطفة حتى لا أتراجع أو أقول إنني في حاجة إلى بعض الراحة، فوجئت بصوت علي أمين يقول لي: «أنيس أمك في صحة جيدة.. وزملاؤك اختاروك رئيسًا للتحرير.. احضر فورًا» وأغلق التليفون.

وكتب الأستاذ الكبير مصطفى أمين مقالاً نشره في الصحف والمجلات يرحب بي رئيسًا للتحرير ويختم المقال بهذه العبارة: «مبروك ياأنيس؛ فأنت الآن تجلس على أكبر خازوق في مصر!»

ولا يزال هذا المنصب خازوقًا، ربما كان خازوقًا حقيقيًا أيام الرئيس عبد الناصر..

أيام الرقابة والسجون والمعتقلات والفصل التعسفي، مئات أخرجوهم من الصحف وأدخلوهم محلات لبيع الأحذية وشركات الأطعمة والباقي في السجون، وأنا في الشارع سنتين ومصطفى أمين تسع سنوات في السجن!

ونحن (الصحفيين) نتصور أننا أهم من كل الناس، وأن الصحافة هي الشغل الشاغل لكل البشر، ومن ليس صحفيًا فليس إنسانًا، إلى آخر هذه الأوهام والغرور الذي لامبرر له، والدكاترة والمهندسون والحانوطية والزبالون يرون ذلك، وأذكر أنني كنت أضرب الزبالين، فما أقذر مدينة لندن النظيفة الجميلة! والسبب اختفاء الزبالين.

في سنة 1960 سافر الرئيس عبد الناصر إلى أمريكا لإلقاء خطاب في الأمم المتحدة، ذهب وعاد ولم ير أمريكا، ولذلك عاش الرئيس عبد الناصر ومات وهو على يقين أن مصر هي (أم الدنيا)، وأجمل ما في الدنيا؛ لأنه لم ير من الدنيا إلا الهند واليمن ويوغوسلافيا! وفي الطائرة إلى أمريكا جلس إليه الأستاذ مصطفى أمين يحدثه عن أزمة الصحافة المصرية، وحاجتنا إلى الورق وإلى قطع الغيار والآلات الحديثة – لأن صحف لبنان تقدمت علينا، فعندها الورق والحبر والآلات الحديثة، مع أن مصر هي أم الصحافة، ولكن كيف تبقى حديثة وكل أدواتها قديمة ومستهلكة.

وبعد أن أطال مصطفى أمين سأله عبد الناصر: خلصت كلامك يامصطفى؟

أيوه ياأفندم.

- شوف يا مصطفى أنا عندي ثلاثون مشكلة لابد من حلها، وتجيء الصحافة في المرتبة السابعة والعشرين!

خاب أمل مصطفى أمين وخيب أمل الذين يتصورون أنهم فوق، فوق كل البشر وكلٍّ هموم الحكام.

بل هي كلمة عربية

لانزال ننطق الكلمات الأجنبية خطأ. حتى الذين يعرفون لغة أجنبية. مثلا نقول (برج إيفل) بالفاء التي عليها ثلاث نقط ونقول (مافيا) بالفاء التي عليها ثلاث نقط. والباء الثقيلة نجعلها خفيفة والخفيفة نجعلها ثقيلة. ونقول (برافو) بالباء الثقيلة. «وكله ماشي» ويمنعنا الكسوف أن نلفت ألسنة الناس إلى النطق الصحيح. ولكن الواجب يحتم علينا ذلك. فلنا دور تربوي.

في إحدى الشبكات العربية رجل مسئول أصر على أن يتحدث عن المافيا في السياسة وفي الاقتصاد. والذي ضايقني أن كلمة مافيا جعلها بالفاء ذات النقط الثلاث. أما المحاور التلفزيوني فكان ينطقها كما يجب. ولم يلتفت الضيف المسئول إلى محاوره التليفزيوني. أو لعله لاحظ ولكن وجد أنه هو على حق. ولا أستبعد أن يتحدث هذا المسئول إلى إدارة التليفزيون فيلفت نظرهم إلى الأمية المنتشرة في التليفزيون؟ ممكن.

مع أن كلمة (مافيا) عربية. وظهرت هذه الكلمة في جزيرة صقلية التي احتلها العرب في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر. تلك الجزيرة النائية تسلطت فيها العصابات والبلطجة وقطاع الطرق

والمهربون. وكان البوليس يطاردهم. ويدق بيوت العرب يسألهم: أين ذهبوا؟ فكانوا يقولون: مافي. أي مافي أحد منهم عندهم. وكانوا يشيرون بأيديهم الي الجبل. فظنوا أن كلمة (مافي) تعني في الجبال. أو كلمة (مافي) هي إشارة إلى هؤلاء اللصوص. ودخلت كلمة (مافي) القاموس الإيطالي: مافيا. والرجل مافيوزو والمرأة مافيوزا. والبلطجة مافيوزيتا.

ولو كان سكان صقلية من أبناء العراق لصار اسم المافيا (ماكيا) ففي العراق يقولون ماكو. أي ما في شيء.

واستشرت المافيا حتى قضى عليها موسوليني في عشرينيات القرن الماضي. فهربت إلى أمريكا. وانتظمت وتدخلت في كل نشاطات الحياة الأمريكية. وكانت قادرة – ولاتزال – على أن تأتي بمن تريد إلى الحكم. ويقال إن الرئيس بوش الأب قد جاء على أكتاف المافيا التي هي إمبراطورية الشر والدعارة والقمار والمخدرات والتزوير وكل مافي قاموس السفالة من كلمات.

وما دامت عندنا في العالم العربي أشكال وألوان وأحجام، من المافيا، فليس خطأ أن ننطقها خطأ. لقد توطنت فأصبح لها كل حقوق النطق الغلط والفهم الغلط وألا يجرؤ أحد على تصويبها فآسف يا أصحاب المقام الرفيع من المافيا العربية.

وكان لابد أن يعتذر

طبيعي أن يعتذر مادام أخطأ بهذه الصورة الفادحة.

فقد أشار الأستاذ عبد الرحمن الراشد إلى زلة اللسان التي تدحرج إليها الرئيس المكسيكي عندما دافع عن مواطنيه ضد المعاملة السيئة التي يلقونها من الأمريكان، واضطرهم إلى أن يقبلوا من الأعمال ما يأباها الزنوج. وغضب الأمريكان السود، وكان لابد أن يعتذر وأظنه فعل!

وكان د. أحمد نظيف رئيس وزراء مصر قد أخطأ عندما قال إن الشعب المصري لم ينضج بعد، فالديمقراطية ثوب واسع عليه، وأنا أري أنه لم يخطئ، فإذا كان نصفنا من الأميين ونصف النصف من أشباه المثقفين. وعند الإغريق أن الحقيقة جاءت عارية تماما فنفر الناس منها بأوراق التوت فأقبلوا عليه. وربما أخطأ المترجم. ربما.

وعندما كان تشرشل عضوًا في مجلس العموم عن المحافظين، قام أحد نواب العمال في منطقة الفحم في نيوكاسل وسأل: قلتم كثيرا إنكم ستخفضون الأسعار لصالح العمال، فماذا أرخصتم لنا؟ فرد عليه تشرشل: أرخصنا لكم الصابون.

وضج المجلس مستنكرًا هذا الرد الشنيع، وكان لابد أن يعتذر تشرشل واعتذر.

وفي مثل غلطة رئيس المكسيك وقعنا نحن أيضًا عندما نشرنا صورة صغيرة لحفلة زفاف وكنت أراجع الأعداد الأولى في الصفحة الأولى، وجدت كلامًا تحت إحدى الصور، ففزعت وأوقفت المطبعة وذهبت بسرعة إلى الأستاذين مصطفى أمين وعلي أمين: ماذا نعمل؟

وكان ردهما الفوري: إعدام كل الأعداد التي طُبعت فورًا دون أن يعرف أحد الأسباب، وطُلب مني أن أتأكد أن أعداد مجلة (آخر ساعة) التي أرأس تحريرها قد وزعت خارج القاهرة حتى لا نضطر إلى الاعتذار، وهكذا يعرف من لم يكن يعرف.

أما السبب فهو الكلام تحت صورة العروسين يقول إنهما يمشيان بين صفين من الجرسونات والسفرجية، وجاءت كلمة لامبرر لها تقول: ويرى العروسان بين صفين من السود(؟).

وفي مناقشة حادة بين الأستاذ الكبير عباس العقاد وبين د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) عن تعدد الزرجات، وكان للأستاذ العقاد رأي أغضب د. عائشة فردت عليه ردًّا عنيفًا، فغضب الأستاذ العقاد؛ وكتب يقول: هذا شيء عجيب، إنني أتحدث عن المرأة؛ فما دخل هذه السيدة. إنها سيدة وإنها الزوجة الثانية للأستاذ الكبير أمين الخولي.

وذهبنا للأستاذ نرجوه فقال: آسف قلت له: اكتبها ياأستاذ.. فأجاب: أما هذا فلا. فاعتذرت لها أنا وقلت لها. إن الأستاذ غلطان أمام فلان وفلان.

ورضيت على مضض.

من إيطاليا ينامون ليحلموا بما رأوا !

نعم صدقت ياشاعرنا القديم : !

أهابك إجلالا وما بك قدرة علـيَّ ولكن ملء عين حبيبها

أي واللَّه ولا يملأ العين والأذن والخيال والأحضان إلا الحبيب.. وحده الذي له المهابة والأبهة.

فأنا الآن في مدينة صغيرة اسمها «إيمولا» أرجو أن تنطقها هكذا.. أن تطيل حرف الألف المكسورة وأن تخطف اللام برفق.. فاسمها موسيقي غنائي.. وهم عندما ينطقون هذا الاسم يتغنون به. صدقني كلما كنت أسمع هذا الاسم أقول: كأنني سمعت أم كلثوم.. حتى لو نطقها الرجال فهم جميعًا أم كلثوم.

كانت هذه المدينة التي على شاطئ البحر الأدرياتي في شمال شرق البلاد عاصمة.. وككل العواصم أقاموها وجاءت القوات الغازية وهدمتها وأقامتها وأجلستها واحتضنتها وطردتها.. وبقيت في موقعها تحكي القديم والجديد.. والذين جاءوا والذين ذهبوا.. فلا شيء يذهب بعيدًا.. فليس أسهل من استدعائه ويُعاد التاريخ حكايات ونوادر وأغاني وقبلاتٍ ودموعًا.

قالت لي سيدة وزوجها: أنت اليوم ضيفنا وسوف ندعوك إلى أجمل وليمة.. هل تحب أن تتكلم أثناء الطعام.. هل تحب أنت.. ولم أنطق.. وكان معنى ذلك أن الوليمة قد بدأت.. فنحن جميعًا على العين بالألوان و الأذن بالصمت ولا أعرف أين القلب من العقل وأين المعدة.. بل لم أعد أشعر بأن هناك عينًا وأذنًا وعقلاً وقلبًا ومعدة.. كل شيء انفتح على كل شيء.. وقفت بنا السيارة ووقف الكون يتفرج علينا.. أو نتفرج عليه.. ومع أن الذي نراه قليل إلا أن هذا القليل هو خلاصة الجمال فوق الجبال، فوق السحاب.. وعرفت السبب أنهم في بيوتهم يحلمون بما رأوا.. ينقلون الدنيا إلى فراشهم.. يقومون بإحياء ما كان، يستحضرون الماضي كل ليلة.

كم ألف مرة سمعت كلمة (إيمولا».. إنها تتكرر بلا ملل، كما تتكرر حقول العنب يمينًا وشمالاً.. كان الناس هنا لا يأكلون إلا العنب ولا يشربون إلا عصير العنب. لم أر حقلاً واحدًا للقمح ولا رأيت فاكهة أخرى.. سألت مداعبًا: ألم يأت هنا الشاعر دانتي أو الفنان دافنشي؟

وكان السؤال إهانة للبلد الجميل.. وكانت حكايات وعبارات جاءت في خطابات دانتي وفي رسائل دافنشي.. فهي إهانة كبرى ألا يجيء واحد من هؤلاء، وحتى إذا لم يأت فكيف لايذكر «إيمولا».. ثم كيف لا أذكر أنا ذلك.. كيف أنسى هذه الوليمة الأبهة.. وليمة الألوان والجمال والموسيقى والصفاء والنقاء والأبدية في لحظة والجنات في نظري؟

كأنها أم كلثوم تغني : رق الحبيب !

من فضل اللّٰه علينا أننا ننسى أن الأيام تقدمت بنا تجري وتتعجل النهاية. وأحيانا نتذكر. ولا نعرف ما الذي يمكن عمله. إلا أن نغالط وننسى. زمان كنت إذا قابلت أحدًا ومعه ابنته، فإنه لايشير إليها كأنها شبح. لماذا؟ لأنني كنت أكتب عن الزواج بلا حب والحب بلا زواج. ولما تقدمت في السن، كان الرجال يقدمونني لزوجاتهم وأولادهم. فلا خوف، لأن هناك قدرًا من العقل والنضج. وأخيرا اعتدت على من يقول لي تصدق باللّٰه. ومالكش عليَّ يمين.. هناك واحدة لاتنام الليل ولا يهنأ لها بال إلا إذا قرأت لك كتابًا.. طبعًا أشعر بشيء من السعادة. وفجأة يقصف عمر السعادة فيقول: تعرف مين؟ جدتي!

يعني واحدة من سني !

وعرفت مقياسًا آخر للسن إن كان مقعدي في الطائرة إلى جوار النافذة أو على الممر طبعًا ولا أسأل ولا أعرف إن كان مقعدي في الدرجة الثانية.. فأول طائرة ركبتها في رحلة استغرقت شهرًا في أوروبا كانت من (طيران جيبوتي).. وكانت مخصصة لنقل الحيوانات من شرق إفريقيا إلى غربها.. المقاعد متواجهة.. أي أننا نجلس على الجانبين ونمسك حبلاً واحدًا.. والطائرة تتدحرج ونضحك وننام..

ولما انتهت رحلتي الشهيرة التي استغرقت 228 يومًا وصدرت في كتاب لم أذكر ولا مرة إن كانت الطائرة مريحة أو كان مقعدي في الأول أو في الآخر.. المهم أن أطير وأن أسافر.. أتفرج وأستمتع وأكتب. وبس.

ولم أفكر لحظة واحدة في خطورة أن أركب طائرة بمحرك واحد لأتفرج على بركان نام قرنين وصحا فجأة. وعندما هبطت الطائرة وجدت الحمم قد نفذت من جناحيها على بعد ملليمترات من خزانات الوقود. في هذه اللحظة خفت. وأضفت هذه الجرأة إلى حساب سوء التقدير عند الشباب. وكنت إذا سألني رئيس التحرير: تسافر؟ فأقول نعم. ويعود فيسألني: هل تعرف إلى أين؟ وكيف؟ ومتى؟ ويكون الجواب جاهزا: أي وقت، بأي شكل، وأية فترة والآن!

وقد سافرت إلى الكونغو بالقميص والبنطلون وإلى الباكستان كذلك!

أما الآن، فإنني أسأل: أين وكيف وكم من الوقت وفي الدرجة الأولى طبعا.. واسم الفندق. فلابد من مراعاة فروق التوقيت.

وسوف يبقى صوت المضيفة وهي تعلن عَن شركة مش عارف رحلتها رقم مش عارف المتجهة إلى أي مكان، وأنها سوف تقطع المسافة وعلى أي ارتفاع.. واللَّه كأنه صوت أم كلثوم تغني: رق الحبيب!

هي جميلة جدًّا وأنا أيضًا !

لم تعد المرأة هي وحدَها التي تذهب إلى طبيب التجميل وتشير إلى شفتيها وعنقها ونهديها وردفيها وخصرها، وتطلب من الطبيب أن يقوم بتجميل كل ذلك، فيجعل الشفتين أكثر امتلاء، ويصغر أو يكبر النهدين والردفين، ويزرع الشعر في جوانب الرأس كل ذلك ممكن وسهل جدًّا في باريس ومصر ولبنان وأمريكا. وتكاليف عمليات التجميل فادحة وعدد النساء اللاتي أجرين جراحات تجميل في أمريكا وحدها في العام الماضي ثلاثة وعشرون مليونًا.

والرجال أيضًا ينافسون النساء. بعض الرجال لايجد حرجًا في أن يعترف بذلك مثل بيرليسكوني رئيس وزراء إيطاليا والمطرب الزنجي مايكل جاكسون والبنت الدلوعة نانسي عجرم، وعدد كثير من نجوم السينما نساء ورجالا. وتستطيع أن تعرف ذلك بسهولة، فعندما تجد الوجوه مثل البلاستيك أو الخزف، مشدودة لامعة. وعندما تجدها غير قادرة على التعبير، أي أن وجهها مثل صفحة بيضاء لا تظهر عليها الكلمات وإنما تبلعها أولاً بأول، فأنت أمام وجه ومعالم قد أعيدت صياغتها.

والشاعر العربي القديم غلطان جدًّا عندما قال:

تدس إلى العطار سلعة بينها   وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟

طبعا استطاع وبرع في ذلك!

ولو عاش هؤلاء العظماء لأسلموا وجوههم إلى العطار ليصلحها: سقراط والمعري والأعشى والجاحظ والحريري وأبو حيان التوحيدي والفرزدق وعبد العزيز البشري وعبد الحميد الديب وكامل الشناوي.

وكان تلامذة سقراط عندما يقدمونه للناس يعتذرون عن قبحه ودمامته قائلين: ولكنه أستاذنا العظيم سقراط!

وكان سقراط ضخم الوجه والأنف والعين، عاري الصدر، حافي القدمين!

ويقال إن شاعرنا الكبير الظريف حافظ إبراهيم وجد شابًّا دميمًا حزينا فاقترب منه وقال له: يابني لاتحزن، ليست غلطتك، إنها غلطة أبيك الذي لم يدفع مهرًا غاليًا!

وصناعة التجميل قديمة قدم الإنسان الذي يريد أن يظل شابًّا. والمرأة تحرص على أن تبدو أجمل وأرق وأقدر على مائدة الزمن، ففي البرديات المصرية القديمة، قرأنا عن عمليات جراحية عجيبة وجريئة. كيف استطاع الفراعنة من ألوف السنين إجراء عملية تجميل الأنف والفك. كيف؟ إن عالمًا مصريًّا كبيرًا! هو د. بول غليونجي، قدَّم لنا في دراسته الشاملة للجراحة عند الفراعنة، مئات العمليات الجراحية التي تذهل الأطباء المعاصرين. فنحن لا نعرف الأدوات التي استخدمت، ولا ماذا فعل الطبيب لشد البشرة ووقف الدم وتفادي التسمم والنزيف، وكم من الوقت احتاجت العملية، وكم من الوقت

التأمت فيه الجراح، وكم كانت تتكلف؟! وإنما قدم لنا د. غليونجي تفاصيل دقيقة للعمليات الجراحية، والعجيب كانت لإصلاح عيوب خلقية لدى الأطفال؛ أي عمليات جراحية في سن مبكرة حتى لا يصعب على الطبيب إجراؤها عندما يكبر الطفل. وهذا ما ينصح به الأطباء الآن! وهذا ما تفعله (الهندسة الوراثية) فالعلماء يستطيعون إصلاح العيوب الوراثية ابتداء من التدخل في عناصر الوراثة قبل أن يولد الطفل، أو قبل نمو النبات والحيوان أيضًا.

إلا هذه القبلة !

لم أعرف إلا اليوم أن الخطاب الذي أملاه الرئيس السادات متمنّيًا فيه للرئيس كارتر أن يفوز بجائزة نوبل للسلام سوف يظهر في كتاب عنوانه «كتاب التنبؤات» من تأليف الأديب الأمريكي رَفنج والاس وابنه وابنته.

يقول الخطاب الذي كتبته بيدي: أؤمن بمنتهى الصدق أن جيمي كارتر مؤهل أكثر من أي إنسان ليفوز بجائزة نوبل، فلا أحد يجاريه في كفاحه المعروف من أجل نشر السلام والتفاهم بين الشعوب. فلم يحدث أن استطاع أي زعيم أن يفعل ما فعله وينجز ما أنجزه كارتر من أجل قضية السلام، فدوره من أجل تحقيق السلام والعدل في الشرق الأوسط كان ضروريًا تمامًا. قد نذر نفسه لهذا الهدف النبيل، حتى يجد حلاً للقضية الفلسطينية، وخلال تعاملي معه، وجدته رجلاً بعيد النظر متمسكًا بالقيم الأخلاقية، فإيمانه باللّه لايتزعزع وكذلك شعوره بالتعاطف مع الناس وحرصه على تخفيف عذاباتهم وإنقاذهم من القهر الذي يتعرضون له في أركان الأرض. وباختصار، فإنني أرى أن منحه جائزة نوبل للسلام سوف

يكون عدلا لقضية السلام العالمي والصداقة. وفاز السادات بجائزة نوبل للسلام قبل أن يفوز كارتر بعد ذلك بسنوات، ووجدت الكتاب قد وضع هذه الرسالة ضمن نبوءات الحكام بعضهم لبعض. وأذكر أن السادات لم يسعد كثيرًا عندما منحته مؤسسة نوبل جائزة السلام مناصفة مع مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل، وكان يرى أن يفوز بها وحده أو يفوز كل منهما بجائزة (في مابعد فاز عرفات وبيريز بجائزة نوبل جميعًا) – وقرر الرئيس السادات ألايذهب لكي يتسلم الجائزة في أوسلو عاصمة النرويج، وأناب عنه المهندس سيد مرعي، ثم طلب مني ومن د. أحمد ماهر أن نكتب معًا الخطاب الذي سوف يلقيه المهندس سيد مرعي.

وذهبت إلى أوسلو لأشهد احتفالا بسيطًا، الحاضرون عددهم قليل وظهر السيد بيجين والمهندس سيد مرعي وكانت اللحظة التي كان ينتظرها السادات لينفجر بالضحك في القاهرة وليعاود الضحك مرة أخرى عندما اتصلت به من أوسلو، فقد قال السادات (لسيد مرعي: (وإيه اللي حتعمله ياسيد إذا هجم عليك بيجين وهات يابوس؟)

– ياريس لايمكن. لن أمكنه من ذلك.

– هاها.. أرني كيف تفلت من أحضان بيجين – هاها.. واقترب بيجين متهجمًا على سيد مرعي لكي يقبله لتكون صورتهما في الصفحات الأولى لكل ورقة مطبوعة على كوكب الأرض. ولم يكد بيجين يقترب منه حتى مدَّ سيد مرعي ذراعه على آخرها، مما باعد بينهما ولم تكن هناك قبلة!

تمامًا كما فعل الرئيس الأمريكي كلينتون في لقاء مع الرئيس عرفات. سأل: أفتوني في أمري ماذا أفعل؟ فكانت فكرة سفير أمريكا في مصر الذي هو في إسرائيل: يمد الرئيس ذراعه أمامه وأن يتصلب على هذا الوضع، فاذا هجم عليه عرفات وجد هذه المقاومة لأقبح قبلة في التاريخ!

وفي التليفزيون من أوسلو سألت الرئيس السادات: ما رأيك ياريس!

– واللَّه سيد مرعي عرف يعملها كويس.. هاها.

فضلت أن أظل مصريًّا جائعًا !

في مذكرات شارلي شابلن هذه العبارة البليغة: نحن نخاف من منظر الدم مع أنه يجري في عروقنا. ولكني لا أخاف من منظر الدم. وفي نفس الوقت لا أحب اللحم. ولم أذق اللحم في حياتي. فأنا نباتي، وقد سألت أبي وأمي وإخوتي وعماتي وكان الجواب: لا نعرف لماذا لا تأكل اللحم. وكنا نراك إذا رأيت اللحم رحت تبكي!

وكنت أتمنى أن أكون طبيبًا لكي أعالج والدي. ولم أفهم معنى الأمنية. فمعناها أن يظل والدي مريضًا حتى أفرغ من الدراسة بعد عشرين عامًا. ولكن لم يكن هذا هو شعوري الحقيقي. وكنت أحب أن أكون مطربًا وعرفت فيما بعد أن سبب حبي للغناء هو إعجابي بمحمد عبد الوهاب.. لعبارات محمد عبد الوهاب السهلة وقدرته على ربط العبارات والانتقال الناعم بين الطبقات. وكرهت في نفس الوقت أن أكون نباتيًّا.. ففي كل مرة أتناول غدائي أو عشائي مع أحد أكون أنا موضوع الكلام. يعني إيه نباتي؟ ولماذا؟ وما السبب؟ هل رأيتهم يذبحون خرافًا؟ هل أكلت لحمًا فاسدًا.. هل هو الفقر فلم تجد لحمًا في بيتكم؟ فلما كبرت واستطعت كنت قد أدمنت الأعشاب والخضراوات.

وفي إحدى المرات كنا نعبر المحيط الهادي من اليابان إلى جزر هاواي. ولم أجد طعامًا. وأخيرًا بعد ساعة جاءني كابتن الطائرة قائلا: أنا نباتي مثلك ويسعدني أن أقتسم طعامي معك!

كنا في لبييا. وكان الرؤساء: حسني مبارك وحافظ الأسد والبشير والقذافي وكل رؤساء التحرير نتناول طعامنا في غرفة واحدة. يتوسط هذه الغرفة هرم من الجمبري والسمك والمايونيز.. وبعد أن وزعوا الطعام على الرؤساء دارت مناقشة غير مجدية مع أحد السفرجية. قلت له: أنا نباتي وأريد طبقًا واحدًا من هذا الهرم البديع فقال: لابد من أمر اللجنة. قلت: يعني إيه؟ قال: اللجنة. بضم الجيم. هي المسئولة وهذا طعامها قلت: يعني إيه؟

فلاحظ الرئيس مبارك هذه المناقشة من بعيد واستوضحني. فذهبت إليه قلت: ياريس الطعام الجميل الفخم ده ليس لكم وليس لنا.. إنه خاص باللجنة الشعبية لهذه المنطقة وبعد أن نفرغ جميعًا من الطعام يجيئون إلى هنا ويتناولون هذه الأشياء البديعة وسألني: إيه المشكلة؟ قلت المشكلة ياريس إنني نباتي. وإن هذا الهرم منتهى أمل مثلي. والرجل يرفض.

فقال الرئيس: عندي حل من اثنين.. أن تبقى هنا وتحصل على الجنسية الليبية أو أؤجل الغداء حتى تصل إلى مصر بعد ساعتين!

وفضلت أن آكل العيش والملح وأظل مصريًا حتى لو لم أجد مثل هذا الهرم الذي لم ينشئه لاخوفو ولا خفرع!

الظالم والمظلوم والعدل أبدًا!

عندما قتل قابيل أخاه هابيل، وقف الأب آدم يسأل: لا أعرف، وهل أنا حارس لأخي! منذ ذلك الحين وهناك قاتل وقتيل، وظالم ومظلوم. ومن ينفي عن نفسه جريمة القتل والظلم، من أيامها حتى صدام حسين. ولو نظرت إلى ما يحدث في بيتك لوجدت أنه إذا سقط طفل على الأرض، فإن المعنى أن المحكمة انعقدت بسرعة، وحكمت بأن الأرض هي الغلطانة ولابد من معاقبتها فورًا، ونحن لا نلتفت عادة إلى أن الخصم هو الحكم – الحكم هو الأم وهو الطفل، أما المحكوم عليه فهو الأرض، أو المقعد إذا اصطدم به الطفل! وإذا كلب كسر شيئا ضربناه، مع أنه لا يعرف بالضبط ما حدث.

ومن أعجب المحاكمات ما حدث في فرنسا في قرية سان جوليان سنة 1545. فقد شكا الناس من انتشار السوس في حقول العنب، وفزع الناس إلى الكنيسة وطالبوها أن تتدخل وتمنع بالصلاة والدعاء هذا البلاء. بل إن الكنيسة رأت أنه ليس من العدل محاكمة السوس من دون أن يتولى أحد الدفاع عنه. ووقف محامي المجني عليه ومحامي الجاني. ولجأ محامي السوس إلى آيات في سفر (التكوين) من الكتاب المقدس تقول: إن اللّٰه خلق النبات والفاكهة لكل الكائنات، فهي طعام

للإنسان والحيوان، فهذه الحشرات لم تخالف الكتاب المقدس، فإذا لم تجد الطعام الذي خلقه اللّه ماتت. وبعده بأربعين عاما بدأت محاكمة الحيوانات التي اعتدت على الإنسان. فالخنزير الذي أكل أذن طفل، قطعوا له أذنه، والحصان الذي رفس صاحبه كسروا ساقه، والخنزير الذي بقر بطن طفل ضربوه ثم أحرقوه.

وفي قرية أخرى في سويسرا انتشرت الفئران فلجأ الناس إلى الكنيسة فطلبت الكنيسة عددًا من المحامين لتدافع عن الفئران، ولكن أمام عذاب الناس وبكائهم على ما تحطم من أدواتهم وملابسهم أدانت المحكمة الفئران، وحكمت بحبسها في قطعة أرض خارج المدينة، فأخذ الناس يدقون الطبول لتهرب الفئران إلى الأرض التي حددتها الكنيسة!

وكثيرا ما حاكموا الموتى! أخرجوهم من قبورهم وقرءوا عليهم الحكم، ثم نفذوه حرقًا كأن يكون المتهم سجينًا ومات في السجن من دون محاكمة بل إن الملك هنري الثامن استخرج جثة غريمه الراهب توماس بيكت، وحكم عليه وأحرقه! وغيرهم كثيرون غضبت عليهم الشعوب وظلموهم، فلما عرفوا الحقيقة نقلوا رفاتهم من المقابر المجهولة إلى مقابر العظماء.

وأروع أنواع المحاكمة الظالمة هي حكم الآلهة على الأبطال وهي رائعة ومروعة ربما كانت الأسباب تافهة. ولكن غلطة هؤلاء الأبطال أنهم أغضبوا الآلهة. وعبقرية الآلهة ظهرت في صور العذاب. كيف كان العذاب عجيبًا فريدًا مثلاً: حكموا على الفتى سيزيف أن يدفع أمامه حجرًا إلى أعلى الجبل، فإذا بلغ القمة انحدر مسرعًا إلى السفح

ليرفعه من جديد وإلى الأبد وحكموا على الفتى بروميثوس أن يتعرى أمام نسر يأكل كبده، وكلما أتى عليه نبت الكبد أو القلب من جديد ويتجدد العذاب إلى الأبد!

وربما كانت نبوءة علمية أن الكبد يتجدد، فهو العضو الوحيد في الجسم الإنساني الذي يمكن زراعة قطعة صغيرة منه فإذا هي تنمو وتصبح كبدًا كاملة!

وحدث كثيرًا أن عاقبوا الأرض التي كانت معبدًا فصارت إسطبلاً للخيول، وصلوا من أجلها لتعود مكانًا طاهرًا مرة أخرى.

وأرجو أن أكون قد أجبت القارئة نجوان السبيلجي (فيينا)

فلا تزال المحاكمات قائمة مادام هناك ظالم ومظلوم وسلطة تنصف المجني عليه.

ساكنات البيوت الزجاجية

السيدة شيري بلير، زوجة توني بلير رئيس وزراء بريطانيا، أصدرت كتابًا عن زوجات رؤساء الوزراء اللاتي أقمن في بيت رقم 10 شارع داوننج، سألتهن جميعًا.. ثم تحدثت عن نفسها وحياتها وأسرتها مع زوجها في هذا البيت الساحر الخانق المكشوف لكل الكاميرات والميكروفونات. وشاركتها في هذا الكتاب مؤرخة اسمها كيت هيست في 320 صفحة عن دار شاتو وويندس. تقول إنها لاتكاد تدخل هذا البيت وترد الباب الأَسود الصفيق وراءها حتى تنتقل إلى عالم آخر له قوانين وقواعد وقيود يجب مراعاتها، وأن تكون سندًا لزوجها، فوراء هذا الباب تحتشد كل هموم الدنيا. ومفروض أن تولد الحلول في اللحظة التي تتولد فيها المشاكل. كيف؟ هذه هي شروط اللعبة السياسية وقد حاورت كلاريسكا زوجة أنتوني إيدن وإليزابيث زوجة هيوم واودري زوجة كالارهان ودنيس زوج مارجريت تاتشر ونورما زوجة ماجور. أما الذي لم تسأله ولا سألت عنه فهو إدوارد هيث الذي لم يتزوج وأسعده أن يتفرغ لقيادة الفرق الموسيقية واليخوت. ووصفت حالها وحال السيدات بأنها وأنهن سمكة ذهبية في حوض من الزجاج.. ذهبية ولكنها سمكة محبوسة في حوض ماء. إذا خرجت منه ماتت.

أحيانًا يحسد العظماء الناس العاديين على حرياتهم. على نومهم العميق وليلهم الذي يستحضرونه ونهارهم الذي يأتي من النافذة وكذلك كان الآلهة الإغريق يحسدون الإنسان على حريته. وعلى أنه يولد ويموت. أما هم فلا أول لحياتهم ولا آخر.. ولا يمرضون ولايموتون. ولذلك يحاولون أن يجعلوا أنفسهم بشرًا يحبون ويكرهون ويخطئون وبسرقون.. ويضيقون بالقمم العالية.. كما يضيق سكان البيت الأبيض و 10 شارع دواننج والإليزيه والكورينال والباب العالي ولكنهم على استعداد لأن يقاتلوا ويقتلوا من أجل البقاء في هذا السجن الزجاجي.

وفي إحدى مسرحيات أمير الشعراء أحمد شوقي تتباهى فتاة بدوية بحريتها وتتعالى على فتاة من بنات الحضر فتقول:

ونحن الرياحين ملء الفضا ء وهن الرياحين في الآنيه

ويقتلنا العشق والحاضرا ت يقمن من العشق في عافية

ويقال إن ميسون زوجة معاوية قد ضاقت بالحياة معه وكانت تفضل حياتها مع ابنها فقالت:

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إليَّ من قصر منيفِ

وكلب ينبح الطراق دوني أحب إليَّ من نقر الدفوفِ

وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب إليَّ من أكل الرغيفِ

وبعل من بني عمي كريم أحب إليَّ من ملك عنيفِ

فقال لها معاوية: كنت فبنت، أي كنت زوجة لي فأنت طالق بائن. فقالت: واللّه ماسعدنا حين كُنَّا ولاشقينا حين بِنَّا.

وسفر «نشيد الإنشاد» في التوراة هو أروع قصة عذاب واحتجاج على حياة الملك والقصور، فبطلة نشيد الإنشاد هي راعية غنم اسمها (شالوميت) فهذه أجمل البكائيات على الحب والحرية بين الأغنام والمراعي مع حبيبها.

ولأن هذه البيوت زجاجية فهي هشة قابلة للكسر.. وهي ضعيفة.. والناس أقوى. يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

ياســـاكـن البيت الزجـــــا   ج هبلت. لا ترمِ الحصونا

شخصيات الرواية
تهتف بسقوط المؤلف!

في سنة 1961 شرعت في كتابة رواية بعنوان «عريس فاطمة» أسبوعًا وراء أسبوع، وفجأة وجدتني عاجزًا عن إكمالها، ولم أستطع ذلك ست سنوات! ولم أعرف كيف أنشر قصة ناقصة، وماذا أقول، فالأدب ليس كالأعمال الأخلاقية: إنما الأعمال بالنيات ولكل أديب ما نوى.

إلا إذا أردت أن أثبت على نفسي أنني حاولت وفشلت، وإلا أن أقول إن الرواية ليست فنًّا، وإنما القصص القصيرة والمسرحيات والمسلسلات، وقد كتبت أكثر من مائتي قصة قصيرة وعشرين مسلسلاً، وما لا عدد له من المقالات في أكثر من خمسين عامًا، ولم أجرؤ على أن أعيد قراءة هذه السيمفونية الناقصة، فهي دليل على عجزي وعلى أنني لم أكن أعرف قدر نفسي وهي أكبر دليل على إدانتي.

وقررت أن أكملها، وقرأتها مرة أخرى، وتوقفت عند كثير من نقاط التحول فيها، وكتبت ملاحظات أحاول إقناع نفسي، بأنني أستطيع، ولم لا؟ ولكنني لم أستطع.

وبالصدفة كنت أقرأ للأديب الوجودي الإسباني أونامونو كتابه «معنى العذاب» ووجدت شيئًا بديعًا، أنقذني ولكن وضعني في إطار أسوأ مما كنت فيه، فقد وقع الفيلسوف في موقف مشابه تمامًا، ففي لحظة قرر أن يقتل البطل، عندما قفز البطل من بين السطور ومن بين الأحداث وسأله: ولماذا تقتلني؟ ماهذا الظلم؟ ماهذا الطغيان؟ هل لأن الموت مفروض عليك فقد فرضته عليَّ؟ هل أنت تحقد على شخصياتك لأنها أطول عمرًا منك لأن الأدب أطول عمرًا من الأديب، والفن أطول عمرًا من الفنان والشخصية أطول عمرًا من الشخص.. إلخ.

هنا فقط وجدت أن من حق فاطمة أن تحاكمني ومعها كل الشخصيات، قالت لي: أنت السبب، أنت جعلت حياتي صعبة، جعلتني متشددة، وضعتني في بيئة قاسية ثم أطلقتني في الحياة، ولم أكن مستعدة لذلك، ألقيت بي في البحر ولا أعرف السباحة مثلك، وأنت لا تنزل البحر ولكنك أنزلتني إلى البحر ولا تريد أن تغرق لأن القصة لم تكتمل، جعلتني على خلق، جعلتني مثالية، وأسوأ من ذلك جعلتني جميلة وجعلتني شديدة الحساسية. أعطيتني نوعين من الذكاء: الجمال الذي هو ذكاء الجسد، والذكاء الذي هو جمال العقل، وحشرتني في دنيا الأغنياء!

تماما كما قال الشاعر القديم:

- ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وقررت فاطمة أن تتزعم «ثورة العبيد» أبطال هذه الرواية: أن يقفزوا فوق مكتبي في مظاهرة تهتف بسقوط المؤلف!

من إيطاليا لا أعرف .. فماذا لو عرفت؟

أحب المدن الصغيرة.. أحب القرى الإيطالية. لأنها جميلة أو لأنني أرى جميلاً كل ماهو إيطالي: لغة وأرضًا وغابات وبنات. وأنا ككل المحبين لا أعرف بالضبط، فأنا أحب بالجملة. ولا أجد سببًا لأن أعرف لماذا وكيف؟ إنني أحب. في العام الماضي ذهبت إلى مدينة صغيرة اسمها ريفرنيو وسمعت ماقاله العشاق مثلي عن هذه المدينة الصغيرة.. ولكن ما سمعت ولا رأيت إلاما أردت أنا وليس الذي أرادوا – قالوا لي هنا جلس الشاعر دانتي. هنا نام الشاعر داتسيو.. هنا أقامت سيلفانا مانجاتو.. وأنا مالي؟ فهل لأنها جاءت جئت.. هل لأنها نامت نمت.. إن كل شيء جديد أراه كأن أحدًا لا رآه ولا لمسه ولا سمعه ولا تمناه قبلي،. فأنا في هذه الجنة لست في حاجة إلى حواء – لا أريد شريكًا في هذه الغابات والجبال والبحيرات والفراشات والزهرات.. وإن احتجت إلى حواء أشرت إلى أية ورقة أو وردة أو فراشة فكانت ما أريد.

أشاروا إلى نبع ماء، لا أعرف من أين يجيء الماء رقيقًا فضيًّا: دموع عين سعيدة.. قطرات لؤلؤ نزلت من خدٍّ لا أراه.. طلبت أن أسمع أغنية شعبية من صوت شجي.. صوت رجل يجلس بعيدًا عني، وجاء

الرجل وأجلسوه بعيدًا.. راح يئن من حنجرته ويشدو شجيًّا ويقول ويـردد الأغـنـيـة الـتـي سمعتـهـا لا أعرف من ألف مرة فـي رحلاتـي الأربعين أو الخمسين إلى إيطاليا. تقول الأغنية: أين أنت إنني لا أعرف أين أنت.. ليتني أعرف.. فماذا لو عرفت ماذا لو عرفت ماذا؟ لو عرفت كل هذا.. بعض هذا.. أنت وسط هذا.. أنت وحدك ياهذا.. أين أنت أين أنت ليتني ما عرفت.

الشاب الذي زلزلني وهو يبكي من حنجرته فلم تظهر في سمائنا فـراشـة ولا عصـفـور.. ولا سـحـابـة كـأنـه (أورفـيـوس) الإغـريـقـي الـذي عندما كان يغني كان الكون كله يتوقف عن الحركة.. حتى الأسماك في الماء تخرج لتسمع.. حتى الطيور تقف في السماء.. حيث أوراق الشجر تتساقط طريقًا أخضر أيضًا ناعمًا تحت قدميه..

قل مرة أخرى يافرانشيسكو أنا أطلب إليه أن يعيد ويزيد – لا هو سكت ولا أنا مللت. ففي كل مكان في القرى الإيطالية يجدون حكاية يخلقون أسطورة .. وأهم الأساطير أن يجيء الفنان العظيم دافنشي إلى هنا يرسم نيرانًا وقلعة ويكون أحد المعالم السياحية – أو يجيء الشاعر دانتي أو بترارك ويجلس على هذه الصخرة تحت هذه الشجرة. ولقد أحصيت أكثر من عشرين مكانًا وقف وجلس ونظر إليها الشاعر.. وهم يصدقون ذلك لأنهم يتمنون ذلك. واستأذنتُ العمدة إن كان في استطاعتي أن أَنْقُشَ اسمي وأقول: جئت ورأيت وأسعدني ما رأيت وتمنيت أن أشغل شيئًا من المكان في هذا التاريخ الأسطورة.

تكلم حتى أراك!

تساءل أحد قراء جريدة (الشرق الأوسط) ولماذا أنيس منصور؟ أي لماذا يكتب في هذه الصحيفة؟ أو ما حاجتنا إليه؟ ومعه حق، ومعي أيضًا. وقد أجاب الأستاذ الفاضل طارق الحميد رئيس التحرير وكان رقيقًا، فشكرًا له. ولكن من حقك أيها القارئ أن تعرف، وواجبي أن أجيب . أملي أن يقتنع، فأنا ياسيدي كاتب مصري تخرجت في كلية الآداب وتخصصت في الفلسفة ودرَّستها للطلبة في الجامعة عشرين عامًا. وأصدرت 215 كتابًا، وترجمت ثلاثين مسرحية وألفت عشر مسرحيات، وكان لي في التليفزيونات المصرية والعربية عشرون مسلسلاً. وأكتب بابًا يوميًا اسمه (مواقف) في صحيفة (الأخبار) والآن في (الأهرام) من أربعين عامًا. ورأست تحرير عدد كبير من المجلات هي: الجيل و«هي» وآخر ساعة وأكتوبر التي أسستها ووادي النيل والعروة الوثقى ومايو (صحيفة الحزب الوطني) وكاريكاتير. ورأست مجلس إدارة (دار المعارف) أكبر دور النشر، والآن رئيس تحرير مجلة (الكاتب المصري) التي كان يرأسها أستاذنا طه حسين، وتوقفت عن الصدور من سبعة وخمسين عامًا. وأنا عضو في مجلس الشورى من ثلاثة وعشرين عامًا وعضو المجلس الأعلى للثقافة والمجلس الأعلى للصحافة ومجلس إدارة الهيئة المصرية للكتاب، وأخيرا مستشار الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية.

وقد حصلت على كل جوائز الدولة: التشجيعية والتقديرية وجائزة مبارك للآداب وجائزة الإبداع الفكري لدول العالم الثالث والدكتوراه الفخرية من جامعة المنصورة. ومن عشر سنوات احتفل أحد الناشرين مع وزارة الثقافة ببيع النسخة رقم مليون من مؤلفاتي عنده – وليس إلا ناشرًا واحدًا.

وحججت سبع مرات وأديت العمرة عشرين مرة، وصليت داخل الكعبة عشر مرات مع السادات وحسني مبارك والقذافي والنميري وعبد القيوم رئيس المالديف، ولا أعرف كم عدد المرات التي سافرت فيها. فعندي أربعون جواز سفر.. وكانت أطول رحلاتي (حول العالم في 200 يوم) وأقصرها يومًا ونصف اليوم في الكونغو.. وكان من آمالي أن أكون رائدًا للفضاء. وملأت الاستمارات المطلوبة وطلبوا مني المستحيل: أن أدرب نفسي على النوم الهادئ عشر ساعات يوميًّا! فأنا لا أنام في اليوم الواحد إلا أربع ساعات – هذا إن نمت! ومنذ سنوات قال أحد كتاب «الشرق الأوسط» ولا أعرف لماذا: إنني أدعي معرفة اللغة العبرية منافقة لليهود.. إذن فأنا أعرف الإنجليزية منافقة للإنجليز، والفرنسية للفرنسيين والألمانية للألمان والإيطالية للإيطاليين.. وأدرس الفيزياء منافقة لأنشتين والكيمياء منافقة لباولنج والفلك منافقة لهابل وأعشق الرحلات منافقة لابن بطوطة.. فأنا – كما ترى – منافق عالمي، ولو طال بي العمر لنافقت كثيرين غيرهم! وقديمًا لاحظ أستاذنا سقراط في إحدى المرات أن كل تلاميذه قد سألوه فأجاب إلا واحدًا، فالتفت إليه سقراط يقول: تكلم حتى أراك!

وقد تكلمت، وأرجو ألا تفعل ما فعله الامام الشافعي الذي جلس للشرح معتمدًا على إحدى رجليه حتى أوجعته، ولكن شخصًا إمامًا قد

تهيّبه. وفجأة تساءل الشخص الصامت وكان سؤاله سخيفًا فقال له الشافعي: الآن يستطيع الشافعي أن يمد رجله! فإن أنت مددتها فأعطني فرصة أخرى.. وقد علمنا أستاذنا الفيلسوف الألماني هيدجر: أن نحني الرأس وأن نصبر أمام معشوقتنا حتى تجود علينا بشيء وهي لا تجود إلا بقليل.. إما لأن هذا هو القدر المسموح به لنا.. وإما لكي نظل طامعين فيما لديها، أما هذه المعشوقة فهي الحقيقة!

ولا أدعي ياسيدي أن كلماتي قد نظر إليها الأعمى ولا قد أسمعت من به صمم – كما يقول المتنبي.. ولا أنني:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصمُ

وإنما أشعر أن أصابعي مثل دود القز، وأنني أحاول أن أقول حريرًا في النعومة والسهولة، ولا أشعر بالملل حين أعيد وأزيد.. فالمهم أن أكون واضحًا.. فنحن محكوم علينا بالفكر، فهو عشقنا، ولذلك هو عذابنا ولا حيلة لنا في ذلك.. يقول أمير الشعراء شوقي:

ألوم معذبي فألوم نفسي وأغضبها ويرضيها العذاب
ولو أني استطعت لتبت عنه ولكن كيف عن روحي المتاب
يلوم اللائمون وما رأوه وقِدْمًا ضاع في الناس الصواب
إذا ما اعتضت عن عشق بعشق أعيد العهد وامتد الشراب
كأن رواية الأشواق عَوْدٌ على بَدْءٍ وما كمل الكتاب

هذه (أنا)..

وأعوذ بالله من يوم لا أقول فيه أنا!

ما الذي يأكله العظماء؟!

كنا نتناول عشاءنا على مائدة الرئيس تيتو في جزيرة بريوني، ومن حين إلى حين ينظر إلى الرئيس السادات الذي يشرح بحماس قضيته، وكان الرئيس تيتو يستمع.. ثم يضحكان. وفجأة جاءني أحد سكرتيري الرئيس وقال لي: سيادة الرئيس عاوزك، وذهبت، وأشار الرئيس السادات أن أقترب أكثر لأنه لا يريد أن يسمعه تيتو. قال لي:

– يا أنيس خد بالك من الطعام الذي يأكله تيتو بشهية مفتوحة.. مكرونة بالزبدة.. وكافيار.. وكلها كوليسترول.. والرجل عنده أكثر من ثمانين سنة.. ابحث لي الموضوع ده.

– حاضر ياريس.

شيء غريب، فالذي يراهما منشغلين في المناقشات لا يتصور لحظة أن أحدهما مشغول بالطعام وما يفعله في الجسم، وإن كان مناسبًا أو غير مناسب، وإذا كان غير مناسب فكيف أن تيتو في صحة جيدة، ويأكل بشهية مفتوحة على الآخر!

مرة أخرى كنا في لوكسمبورج وقد ذهب الرئيس السادات ليلقي خطابه، وألقى خطابًا بليغًا، وأثناء تناول العشاء اقتربت من الرئيس أهمس في أذنه:

– ياريس كل الموضوعات التي طلبتها سيادتك من السفير الإسرائيلي (بن أليسار) أن تظل سرًّا قد أعلنها في التلفزيون منذ نصف ساعة!

وتضايق الرئيس جدًّا.. وقال: عاوزك بعد الأكل، وبعد الأكل ذهبت إليه وربط الرئيس بين تصريحات السفير الإسرائيلي وبين الموقف الغريب الذي اتخذته صحيفة «جيوراسالم بوست».. فقد نشرت مجموعة من المقالات هجومًا على السادات، فقد جاءني أحد محرريها وطلب لقاء مع السادات.. وتم اللقاء في الإسماعيلية ثم طلب أن يذهب إلى إسرائيل برًّا وألا يفتشه أحد ويأخذ منه الشرائط التي سجل عليها حديثه مع الرئيس. وأنه يريد أن يلحق العدد الأسبوعي غدًا، فكان له ما أراد.. أما الذي نشره فشيء آخر!

وقال السادات إن إسرائيل أرادت أن تفسد عليه خطابه في لوكسمبورج.. وهي حكاية طويلة ومعقدة، وفجأة وجدت الرئيس يقول لي:

– ياأخي انت قلت في مقال لك.. مقال علمي.. إنه ليس صحيحًا أن يأكل الإنسان اللحم فقط.. أنا لاحظت أن السيدة «سيمون فيل» رئيس المؤتمر لم تأكل إلا اللحم.. وإلا القليل جدًّا.. ابحث لي الحكاية دي!

– حاضر ياريس.

وعدنا إلى مصر وكنت أتمشى مع الرئيس السادات في القناطر الخيرية.. وفجأة سألني:

– يا أنيس.. أنت لم تبحث حكاية الرئيس تيتو.. لأن دي حكاية غريبة.. رجل كبير في السن وسمين وعنده كرش ويأكل المكرونة بالزبدة ومعها الكافيار وبكميات كبيرة.. شيء عجيب!

وحتى لا تخطئ فهم هذا الحوار فإن الرئيس السادات هو الذي يبعث على الدهشة، فهو يأكل وجبة واحدة في اليوم.. ويظل طول النهار يشرب الشاي في أكواب صغيرة «بستكانة» كما يقول أهل الخليج، ومن حين لحين كان يسألني الرئيس إن كنت قد بحثت في حكاية تيتو وشارلي شابلن وسيمون فيل.. رحمه اللهً.. لقد طال انتظاره ولم أعرف ما الذي أبحثه!

الذي مات من الضحك!

نشرت الصحف أن شاعرًا عراقيًّا مريضًا وجدوه ميتًا على أحد أرصفة مدينة بغداد.. كأنه قرر أن يعيش معذبًا على أيام صدام حسين، وأن يموت أكثر عذابًا في عهد قوات الاحتلال.. فلا عاش قبل ولا بعد ذلك!

لقد انتهى مثل الرئيس خروشوف الزعيم السوفيتي، فقد مات على مقعد في إحدى الحدائق العامة، ولم يقترب منه الناس، فقد كان الراديو مفتوحًا يقول ويعيد ويزيد فظنوا أنه نائم.. هذا الراديو الخشبي الكبير كان هدية من الرئيس عبد الناصر.

وكان أستاذنا عباس العقاد يتحدث عن أحد أحلامه وهو تأليف كتاب عن (علم الجمال) وقد كان نائمًا على أحد جنبيه. ولما أخذه الحماس حاول أن يعتدل ليكمل شرح نظريته.. لقد نفدت طاقته فسكت كأي جهاز دقيق، وكان سكوته أبديًّا!

وقبل أن يموت توفيق الحكيم ذهبت إليه مع الفنان الكبير صلاح طاهر.. وكان الحكيم يقول إن اللّه سبحانه وتعالى سوف يستمع إلى عدد من الأسئلة قد أعدها توفيق الحكيم، وكان يقول: أنا سوف أدخل

الجنة لسبب بسيط، فاللَّه عادل رحيم، لقد أعطاني عمرًا قصيرًا وعقلاً صغيراً وكونًا هائلاً، وليس من المعقول أن أستوعب كل ذلك، فحاولنا، وغلطنا، وبس! وتوفي في اليوم التالي. وقال لنا الأطباء إنه كان ينادينا لعله يكمل الحوار، ولما لم نكن هناك انحنى جالسًا.. ومات!

وكان الشاعر الروماني تيرمان يلقي إحدى قصائده عندما قذفه أحد المستمعين بحبة تين استقرت في حلقه. فاختنق ومات. والأديب اسكيلوس كان يجلس إلى تلامذته عندما مر أحد النسور فأسقط سلحفاة على دماغه فمات فورًا!

أما أستاذنا الفيلسوف العظيم أرسطو فقد كان من رأيه أن في الماء تيارين: أحدهما دافئ والثاني بارد، فنزل إلى الماء يتحقق من ذلك. ولم يكن يعرف السباحة فغرق!

والشاعر الصيني لي نو كان في زورق في ليلة مقمرة.. فانحنى يقبل القمر فسقط ومات!

كنا في أسوان وكان معنا الشاعر الروسي يفنشكو (دلوعة الاتحاد السوفيتي يتمدد في زورق شراعي. وكانت ليلة مقمرة والنيل من فضة، والهواء حرير.. وأخذ يتلو علينا شعره البديع.. وكان هو أيضًا بديع الصورة.. وقال: لو أستطيع أن ألقي بنفسي في الماء وأظل على صدر الماء حتى الصباح.. وضحكنا؛ ولأنه كان مخمورًا تمامًا خشينا أن يفعلها، وكان جادًا، وكنا في رعب أن تقع هذه الكارثة، ويقول الروس «بناة السد العالي» إننا قتلناه لأن زوجته يهودية ولأنه يحب اليهود!

وشاعرنا الغلبان الساخر من الدنيا والناس: عبد الحميد الديب.. كان طويل اللسان على كل الناس، وعلى نفسه أكثر، عندما عينوه موظفًا في دار الكتب سئل: وأين أنت الآن؟ قال: بالأمس كنت مشردًا أهليًّا واليوم صرت مشردًا رسميًّا.. وظل يضحك ويضحك حتى مات!

والفنان الإغريقي «زويكس» رسم لوحة لعنقود من العنب فجاءت العصافير تنقر العنب فأسعده ذلك.

لأن العصافير لم تفرق بين الفن والطبيعة.. ثم رسم لوحة لواحد يضحك، فظل هو يضحك ويضحك حتى مات!

من إيطاليا كلهن
معشوقات شاعر واحد!

أنت هنا لا ترى مدينة (رافنا).. فلا أول لها ولا آخر.. ولا يهم كثيرًا أن توجد مصلحة البريد ومحطة السكك الحديدية والمطار.. أما الكنائس فمكتوب عليها تاريخ العمارة القديمة.. من بنى ومن هدم، ومن أقام ومن جاء ومن هرب.. فأنت عندما تقف أمام لوحة فنية لا تسأل كم طولها وكم عرضها.. ولا تسأل عن الورق أو القماش الذي رسمت عليه.. فقط أن تمسح عينيك في ضربات الفرشاة في ظلال الألوان. ولو وضعت أذنيك على اللوحة كي تسمع فلن يلومك أحد.. فهي سيمفونيات لونية.. وهي غابات من الخطوط وشلالات من الضياء والظلال.. وكل ما هو مطلوب منك أن تستسلم.. وألا تقول، بل تسمع فقط ما يقال لك.. وما أكثر الكلام في ملايين السطور والنقط والظلال في هذه اللوحة البديعة التي اسمها «رافنا».

فيها مكان صغير مات فيه الشاعر الإيطالي دانتي الليجيري، مات هنا.. ولم يستقر طويلا.. فقد سرقوه ليلا ليدفنوه في بلده فيرنتسه (فلورنسه).. وأخفوه في تابوت.. ثم أعادوه.. ولما جاء

نابليون أخفوه مرة أخرى.. وجاء الرهبان الفرنسيسكان ونقلوه إلى حيث ولد.

وتناثرت وتكاثرت على رفاته الهدايا من الأمراء والبابوات.. قناديل من الزيت.. وجداريات وتماثيل وعبارات له، وعبارات لشعراء آخرين أرادوا أن يخلدوا أسماءهم إلى جواره.. واحد قال: ولد شاعرنا المحبوب لأم لا تحبه.. وعبارة تقول: لم ينشد الخلود وإنما انتظره الخلود واستأذنه.. ولم ينتظر أن يوافق الشاعر على أن يكون خالدًا، لقد اختارته الأبدية.

ويوم ذهبنا سنة 1952 إلى قبره الخانق في مدينة فيرنتسه كنا: د. عبد العزيز حجازي مدرس الاقتصاد والذي صار رئيسًا للوزراء، ود. عبد المنعم البنا مدرس المحاسبة والذي صار رئيسًا للبنك الأهلي، ود.حسن عثمان مدرس الجغرافيا الذي ترجم (الكوميديا الإلهية) للشاعر دانتي أروع وأعظم ترجمة، فهو أستاذ الجغرافيا ولكنه عاشق للأدب الإيطالي واختار عميد الأدباء أمير الشعراء.. يومها لم يستطع أحد أن يبقى في ضريح الشاعر الكبير كثيرًا.. فالمكان خانق قابض.. أراده كذلك ليشعر الزائر أنه في جحيم دانتي.. وبعد الجحيم يوجد (المطهر) وبعد ذلك (الفردوس)، وفي رحلة دانتي في هذه المراحل الثلاث كانت ترافقه حبيبة العمر: بباتريتشه التي رفضت الزواج منه واختارت عمدة غنيًّا.. فضَّلت العمدة على الشاعر والثراء على الأبدية.. ولكن العمدة لم يمنع الشاعر أن يصحبها إلى الأبدية..

وعندما قابلت ابنتي الفيلسوف الإيطالي العظيم كروتشه كان

لهما سؤال: هل أحببت بباتريتشه؟

وسألت: من هي؟

– معظم البنات في فيرنتسه اخترن اسم بباتريتشه حتى لا يكون الشاعر وحده.. وحتى تتوهم كل واحدة منهن أنها معشوقته الأبدية!

– فكلنا دانتي!

الذين قتلوا العراق !

يا ولداه: العراقيون كفروا بالعراق.. تغيرت خريطة الشرق الأوسط.. تغيرت معالم العراق ودول أخرى.. لا الناس هم الناس ولا الأنهار ولا الآبار ولا الذي في أيديهم اليوم كان بالأمس.. واتخذ كل شيء لون دخان البترول، إنه لون النفوس والعيون والأيدي، وشكل المستقبل. وبأيديهم قطعوا أصابع أيديهم وأرجلهم.. ومزقوا جيوبهم.. وصاروا جميعًا أعداء للعراق وليسوا أصدقاء لأحد.. عادت بابل إلى بغداد.. وتبلبلت الألسنة والعقول. وانطبقت على بغداد الصورة التي رسمها العراف الفرنسي نوستراداموس عندما قال: دخان كأنه ناطحات للسحاب.. وناطحات للسحاب كأنها أنهار وقفت على حيلها.. وجاءتهم سحب.. والسحب وقفت فوق المدينة.. ومن السحب هبط أناس بيض في أيديهم نار وشرار..

أو كما وصفهم الشاعر القديم وهو يتحدث عن المستحيلات.. والعراق هو أحد مفردات المستحيل:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب
وصار البر مرتع كل حوت وصار البحر مرتع كل ذيب

ومادام الغراب لا يشيب، والحوت لا يرتع في البر، والذئب لا يرتع في البحر، فلا أمل ولا خروج ولا هروب. إن العراق قد انطلق بعضه على بعض: السنة على الشيعة على الأكراد على السوريين على الفلسطينيين على اليهود على الأمريكان وبقية الشعوب الأخرى. ضاع الأمن وضاع الأمان ومات الأمل في أي حل في العراق وفي لبنان وفي سورية وفي فلسطين!

ذهبت تلك الأيام التي كنا ننتظر فيها طلوع الشاعر الجواهري والشاعر حافظ جميل... ماذا كانوا يقولون، وما أجمل ما قالوا.. أين تلهو الزهور والورود وأسماك دجلة والفرات.. يوم كانت الدنيا كلمات موزونة ومقفاة تنتظر لفتة من شاعر لتكون في لحظة فرقة موسيقية، ونقول: اللّه.. اللّه .. يا أستاذ.. اللّه!

وكان الأساتذة في العراق كثيرين.. نصف سكان العراق شعراء، والنصف الثاني يتذوق الشعر.. ويتذوقون الحياة أيضًا.. وعلى أيام صدام حسين لا أنسى أنني كنت أجلس إلى صديق يقول شعرًا.. اللّه ما أجمله.. وفجأة وجدته يقول نثرًا غريبًا عجيبًا: ياسيدي إن الخطة الخمسية الأولى.. أسفرت عن نجاح للحزب والسيد الرئيس.. أما الخطة الثانية..

ولم أجد في شكله وصوته ما يدل على هذا التحول الشاذ.. فلا شَرب فصار مخمورًا.. أبدًا.. إن الرجل عاقل فنان ذكي ووطني.. ولم يساعدني في حل هذا اللغز فيقول شيئًا، ولم تطل حيرتي.. عندما فاجأني بقوله: لقد سمعت صوت الباب إنه ابني قد عاد.. وهو عضو في الحزب وفي المخابرات!

وفي كل بيت في العراق مثل هذا الابن؛ ولذلك فالناس يتكلمون عن الخطة الخمسية الأولى لانسحاب القوات الأمريكية، والخطة الخمسية الثانية والثالثة..

فلم تعد (ليلى) واحدة مريضة في العراق، وإنما ملايين (الليالي)!

جيوب المرأة قتلت الملايين!

وجدتني في محل أنيق لبيع شنط السيدات، أشكال وألوان وأحجام، على شكل قلب، وعلى شكل شفتين، من جلود الحيوانات والثعابين والنعام.

فالإنسان حيوان له جيوب، وليست الشنطة إلا جيوبًا للمرأة، إنها لا تريد جيوبًا في فساتينها، وإذا كانت فللزينة فقط حتى لا تفسد خطوط الأناقة، أما الرجال فهم أكثر جيوبًا، فالجاكت به خمسة جيوب؛ ثلاثة في الخارج واثنان في الداخل، والقميص له جيب، والبنطلون له ثلاثة جيوب، وأحيانًا أربعة، وأحيانًا ستة، وأحيانًا توجد جيوب في أكمام القميص!

وليس الكانجرو والكوالا فقط هي الحيوانات التي لها جيب، كيس في بطنها لتربية صغارها، فالصغير يخرج من بطن أمه في طول وعرض الأصبع، ويزحف غريزيًّا حتى يصل إلى الجيب ويبقى شهورًا يرضع حتى ينمو ويطل برأسه من الجيب.

وكثيرًا ما سقط الصغير من بطن أمه وهي تقفز قفزًا عاليًا.

وجيوب المرأة كانت سببًا في كوارث ومجاعات في بلاد كثيرة، فعندما ظهرت موضة الشنط والأحزمة من جلد الثعابين، ذبحت الهند ملايين الثعابين، فنجا من الموت ملايين الفئران التي هجمت على القمح فأبادته، وكانت المجاعات في الهند، ولذلك حرمت الهند صيد الأفاعي لتنقذها من الفئران التي تلتهم القمح!

وقد أدت هذه الجيوب إلى اعوجاج سيقان المرأة والرجل في اليابان، فالمرأة اليابانية كانت تحمل أطفالها على ظهرها، وكان الطفل يلف ساقيه حول خصر أمه، وتكبر والساقان معوجتان، وكان ذلك عيبًا في سيقان المرأة، ولذلك ابتكروا الكيمونو الضيق الذي يخفي اعوجاج ساقي المرأة، وأعجب الرجال بالكيمونو لأنه يلتصق بجسم المرأة، ورضيت المرأة بهذا الإعجاب الذي يخفي عيوبًا خِلْقية في ساقيها!

ولكن بعد الاحتلال الأمريكي لليابان، وبعد أن تعلم اليابانيون أكل اللحوم، وأن يغيروا الكثير من عاداتهم، ومن بين هذه العادات أن تترك المرأة طفلها يحبو ويقع ويتساند على كل شيء، فاستقامت ساقاه وظهره، ولم تعد المرأة في حاجة إلى الكيمونو؛ لأنها يجب أن تعمل، واختفى الكيمونو وظهرت الجيوب.

والسبب هو اختفاء الجيوب التي كانت تضعها المرأة على ظهرها تحمل فيه طفلها كما يفعل حيوان الكانجرو في جيب في بطنه.

وأنا أدعي أنني لا أستخدم الجيوب من أي نوع، فليس في جيبي ورقة واحدة ولا جواز سفر ولا قلم ولا فلوس، فقد كنت أحمل شنطة

صغيرة جدًّا، وكنت أنساها، فقررت أن آتي بشنطة لها عجلات وفي الشنطة أضع شنطة بها أوراقي وأجرها ورائي، ورغم كل ذلك فقد نسيتها كثيرًا، صحيح أن الإنسان حيوان، ولكن في حالتي أنا بلا جيوب!

من الذي لا يحب فاطمة؟!

لا أحببت ولا كرهت واحدة اسمها: فاطمة. وليست من أقاربي. ولكن اخترت هذا الاسم كثيرًا.. فلي رواية مشهورة اسمها «عريس فاطمة» وهي محاولة أن أجد لفاطمة عريسًا، فلم أجد.. وقد رويت حكايتها كثيرًا.

وكتبت مسلسلاً اسمه: من الذي لا يحب فاطمة؟! وكتب بعض النقاد المنافقين: أنا لا أحب فاطمة.. من المؤكد أنني لا أحبها!

فاطمة هذه فتاة نمساوية أسلمت.. وعندنا في مصر قضية: بعض الفتيات يتحولن إلى الإسلام، نحن نقول: باختيارهن، والمتشككون يقولون: بالضغط عليهن! وليست هذه قضيتي ولا قضية فاطمة في هذا المسلسل، والمسلسل قضية حقيقية، فقد قابلت شابًّا مصريًّا في مطار فيينا، ووجدته مرتبكًا فسألته، فأجاب أنه جاء يبحث عن عمل.. وهو لا يعرف اللغة الألمانية ولا يعرف أحدًا من المصريين وهو خريج كلية الحقوق – أي إن مهنته لا تساوي شيئًا في هذه البلاد.. وأدهشني ذلك.. وعرضت أن أقدمه لبعض المصريين الذين أعرفهم يبيعون الصحف في شوارع وميادين وتحت الأرض في محطات المترو.. وكان لقاء حميمًا.

ومضت سنوات فرحت أسأل عنه. وكانت قصة هذا المسلسل، فهو قد بدأ يتعلم اللغة الألمانية وعرف فتاة، وأخفى عنها أنه متزوج في مصر، وكانت قصة حب، وطبيعي جدًّا أن يحصل على الجنسية النمساوية، وأن ينظر إلى فتاة أخرى.. والباقي ككل قصص الحب والغرام بين الشبان في مصر أو في النمسا..

وفجأة ذهبت كاتبة مبتدئة إلى القضاء تقول إن هذا المسلسل مأخوذ من قصتها التي أهدتها لي، أما الذي ادعت أنني أخذته منها فهو اسم فاطمة، وأن فاطمة هذه كانت ألمانية أو نمساوية وأسلمت.. مع أن فاطمة اسم عربي مألوف جدًّا وعندنا أفلام تحمل هذا الاسم: فاطمة لأم كلثوم، وليلة القبض على فاطمة لفاتن حمامة، والأستاذة فاطمة، وفاطمة وماريكا وراشيل للمطرب محمد فوزي.. وعندي قصة ظهرت على الشاشة اسمها: القلب لا يمتلئ بالذهب والبطلة اسمها فاطمة.. وهيكل باشا له قصة اسمها زينب، وحسين عفيف له قصة اسمها زينات، وكلها أسماء مألوفة ومتداولة!

ولكن ظهور اسم فاطمة على عمل فني من تأليفي له دلالة عندي، فأنا لم أحل مشكلة فاطمة الأولى التي لم أكملها.. وجاءت فاطمة وأكملت القصة بالهجوم على المؤلف، وتحريض بقية الشخصيات أيضا.. وكأنني أحاول أن أجد لها حلاًّ.. أن أرضيها، أن أريحها.. ولكن من الصعب أن أوفر لها الحل.. فالكثير من المشاكل بلا حلول.. وفاطمة في القصة كأية فاطمة أخرى في الحياة.. مشاكلها عسيرة الحل.. أو مستحيلة، والمثل يقول: فاقد الشيء لا يعطيه.. وأنا فاقد الحل لكثير من مشاكلي ومشاكلنا.. ففاطمة مثلي تمامًا..

وأنا وهي على باب اللّه .. ندق الباب؛ مرة ينفتح، ومرات لا ينفتح، ونتوهم أنه انفتح وأننا دخلنا وجلسنا ونادينا على الحل، فجاء يسعى على ساق بلا قدم.. كما يقول الإمام البوصيري في قصيدته (البردة) النبوية، هذا كل ما في الأمر، ويا دار ما دخلك لا حل ولا ربط – وهذه حياتها وحياتنا أيضًا!

أزمة ثقافة وثقافة أزمة!

هناك فرق بين أزمة الثقافة وثقافة الأزمة. أن تكون هناك أزمة للثقافة أو في الثقافة؛ معناها ألا نجد أدبًا ولا شعرًا ولا فنًّا، وإنما أشباه ذلك، وتتلفت حولك فلا تجد من يقول، وإذا قال فكلامه ركيك، أو كلامه معاد، كأنه طعام أكلوه ومضغوه وبصقوه: نثرًا وشعرًا ورسمًا.

فالكتب لا تقول، والصحف لا تنطق، والشبكات تلهو وتلعب، ولكن لا أحد يستوقفك بصورة أو فن جميل أو بفكرة أو قصة، لا شيء يهزك فتتحرك، وإذا تحركت اتجهت. وإذا اتجهت فإلي هدف، هدف لك، وهدف لكل الناس حولك، هنا فقط تشعر بأنك لست وحدك في هذه الدنيا، حولك وأمامك ووراءك من يمسك مشعلاً يضيء لك، ويضيء بك أيضًا.

فإذا لم تجد شيئًا من ذلك، وخلت الدنيا وتجردت، فلا صوت ولا صورة، فهذه هي الأزمة، أزمة أن تكون أو لا تكون، أزمة أن تكون صوتًا بلا صدي، وصورة بلا ألوان، وأجسامًا بلا ظلال، كأن أحدًا قد أعدم الوجود فيك وحولك، فأنت أيضًا لم تعد شيئًا.

أما ثقافة الأزمة فهي أن تصبح قادرًا على أن تعبر عن هذا الذي تشعر به، عن الذي تفتقده، عن الذي كان هنا واختفى، ثم إنك ترى أن

هذه هي نهاية الدنيا، ولكن تستطيع أنت وآخرون أن تجعلوا هذه النهاية بداية لشيء جديد، طريق جديد، أمل يمشي وراء نجم جديد.

حدث كثيرًا أن تأزمت الشعوب وأن ارتفعت إلى مستوى الأزمة وتغلبت عليها، صورتها، رسمتها، نظمتها، فكأن الأزمة حياة جديدة لفكر جديد، لوجع جديد، لهموم جديدة، تمامًا مثل «قوس قزحٍ» بألوانه البهيجة، فكلما كان السحاب تحته قاتمًا كان أكثر لمعانا، تمامًا كسفينة في بحر، فهي تطفو على الماء ويقاومها الماء وتمضي، مثل طائرة تعلو بالهواء وعلى الهواء.

ولم أجد في تاريخنا لحظة عبثية تدل علينا تمامًا، كالتي أصابتنا – في مصر – في الستينيات، ففي ذلك الوقت وبلا مقدمات انشغلنا بأدب اللامعقول، أو أدب العبث، ترجمناه من الأدب الفرنسي المعاصر وأظهرناه على المسرح، أنا شخصيًّا ترجمت تسع مسرحيات للأدباء: يونسكو وأداموف وأراباك.. وأستاذنا توفيق الحكيم أبدع مسرحيات: ياطالع الشجرة، والطعام لكل فم، والأيدي الناعمة، وشارك أدباء آخرون في تعميم وتعميق الشعور بالعبث، اللامعنى، اللامنطق، ورأينا في مسرحيات يونسكو من يقف على المسرح يحدث نفسه، ومن يحتفل بضيوف لا وجود لهم، ورأينا المسرحية البليغة الحزينة البائسة «في انتظار جودو».

ولكن لماذا؟ لأننا في ذلك الوقت كنا ضائعين ضالين.. أضاعتنا السياسة وضللتنا أبواقها، وسرقونا وجردونا من كل أمل في النجاة.

فأزمة الثقافة ألا تكون هناك الثقافة التي نريدها.

وثقافة الأزمة أن تكون هناك الثقافة التي نريدها تعبيرًا وتجاوزًا لثقافة لا نريدها!

لعلنا نرى الوجود جميلاً !

نشرت «الشرق الأوسط» خبرًا جاءها من أمريكا عن فوائد السمك.. ثم جعلت عنوان الخبر: كل سمكًا ترَ الوجود جميلاً.. أو سعيدًا..

أظن أنني أستطيع أن أفتي في هذه القضية، فأنا نباتي لم أذق اللحم ولا أذوق إلا السمك بكل ألوانه وأشكاله مسلوقًا ومشويًّا، وفي الزيت وفي الدمعة ومدخنًا.. ويقول الخبر إن العلماء قد أجروا تجاربهم على عدد من الفئران.. ولاحظوا أن الفئران كانت سعيدة ومفرفشة.. ومادامت الفئران قد ضحكت، فلماذا لا يفعل الإنسان مثلها.. وكلما ضاقت به الدنيا أكل سمكًا.. ولكن العلماء لم يقولوا لنا أي أنواع السمك التي نواجه بها المشكلة الفلسطينية.. وتزايد السكان والخلافات الزوجية.. والبطالة وأزمة دارفور والصحراء المغربية.. والمذابح المذهبية والعنصرية والعرقية والوطنية والإرهابية في العراق.

فعندنا أسماك في البحر الأبيض والأحمر وأسماك النيل وبحيرة المنزلة والبردويل.. وربما كانت هذه البحيرات ملوثة الماء، فلم تعد أسماكها صالحة للاستخدام الآدمي.

وأذكر أن الرئيس السادات قد طلب مني أن أزور بحيرة البردويل أيام الاحتلال الإسرائيلي لأرى كيف يصيدون أسماكنا ويبيعونها في أوربا ويكتبون عليها أنها صنعت في إسرائيل.. وعدت ومعي عدد من هذه الأسماك والمعلبات السمكية.. فهل كان المصريون والفلسطينيون العاملون في صيد الأسماك سعداء باحتلال إسرائيل، أو بقرب جلائهم عن أرضنا.. أو هل هو السمك؟ لم أتحقق من هذه الظاهرة.

وقد امتنعت عن أكل السمك شهورًا طويلة، بل كنت أنفر من شكله ورائحته واسمه.. والسبب أنني كنت في جزيرة تايوان. وقد دعيت إلى الغداء في مطعم بديع، نظيف أنيق.. وكانت الموائد من الزجاج.. وكان الطاهي يطبخ لك الأسماك واللحوم أمامك.. فرحة.. متعة لولا أنني طلبت من الطاهي كلما فعل شيئًا أن يقول لي ما اسم هذه الأشياء الصغيرة التي يضعها مع السمك.. فقال: هذه ديدان البحر.. وهذه صراصير.. وهذا دهن خنزير، وجاء السمك.. وكان يقوم بتفتيت كل ذلك ببراعة شديدة ثم يخلطها جميعًا بأنواع من البهارات. وهذه البهارات قادرة على إعطاء كل شيء طعمًا لذيذًا.. إنها البهارات القادرة على إخفاء معالم الديدان والصراصيرَ

وطبيعي جدًّا أن أمتنع عن أكل السمك.. حتى لم أعد أجد مادة بروتينية آكلها.. اللهم إلا الفول المدمس والفول النابت!

ونحن – وكل النباتيين – في انتظار أن يجري الأمريكان تجاربهم على البشر أملاً في أن نرى الوجود جميلاً وسعيدًا!

جعلوه كلبًا فصار ذئبًا!

في زماننا وفي أزمنة سابقة لم تكن هناك علاقة كبيرة بين ما كان عليه أبوك وأبي وأمك وأمي ولا كل الناس. فكثير من العظماء صاروا كذلك لموهبة خاصة، اللّه أعطاهم ما لم يعطه للأب والأم والأخوات والأعمام والخالات. إن عظمتهم هدية شخصية لم يرثها أحد من أحد ولايورثها أحد لأحد. مثلاً: الرئيس كلينتون أمه ممرضة، كانت تضع الأبيض والأحمر وتلقي بنفسها في السرير، حتى إذا استدعوها تكون جاهزة! والرئيس نيكسون أبوه عامل تليفون. وزعماؤنا أنت تعرف من كان آباؤهم وأمهاتهم. ولا علاقة لمدينة أسوان بعظمة الأستاذ العقاد، ولا مدينة أسيوط بعظمة طه حسين، ولا عظمة توفيق الحكيم بمدينة دمنهور، ولا قرية ميت أبو الكوم بالسادات وبني مر بعبد الناصر.

فلسبب لا نعرفه امتاز أحد الأبناء عن بقية الإخوة.. ولسبب لا نعرفه قفزت به الظروف إلى فوق. واستطاع بموهبة خاصة أن يبقى هناك. سئل أحد العلماء الألمان: ولماذا هذا العدد الهائل من العباقرة في بلادكم في كل العلوم والفنون؟ فكان جوابه: لأننا قبل أن نذهب إلى الجامعة نمر على الثكنات!

يريد أن يقول إن الجيش هو الذي يعلِّم الناس الانضباط والنظام والصبر. ولا أظن أن هذا هو السبب الحقيقي، وإلا لكانت في الجيوش ملايين العباقرة.. بل إن الكثير من العباقرة كانوا مرضى ولم يلتحقوا بالجيوش، وإنما حاجة العلماء العظماء إلى النظام والصبر قد تعلموه في الثكنات العسكرية!

وقد سادت نظريات الوراثة التفكير الإنساني مئات السنين. فأصبحت كل عيوبنا ومزايانا موروثة عن آبائنا. تأثرت بالآباء، أو تأثرنا بعكس ما كانوا عليه. المهم أن الوراثة السلبية والإيجابية موجودة هناك، وأنها قيود من حديد، وصفات عميقة في الدم، ولا مفر منها. وجاءت نظريات أخرى تقول إن كل الصفات خلقية، ولا علاقة لها بالتربية أو بالأسرة. مثلاً الذي يستخدم يده اليسرى بدلاً من اليمنى، ليس سبب ذلك إهمال والديه، وإنما هو عيب خلقي (بكسر الخاء) وأن ذلك موجود في مخه، ولا يمكن تفسيره. فعدد من رؤساء أمريكا يستخدمون اليد اليسرى: ريجان وبوش الأب وكلينتون، ومارلين مونرو ودافنشي. يقول ريجان إن أهله ضغطوا عليه أن يكتب بيده اليمنى فاستطاع، ولكنه لا يستريح إلا إذا استخدم يده اليسرى.

وقال ريجان أيضًا إن خوفه من والديه كان يجعله يستخدم اليمنى أمامهم.. ثم يهرب إلى غرفته ويقفل الباب عليه ليكتب بيده اليسرى!

وعلماء البيئة يرون: أننا إذا غيرنا البيئة التي يعيش فيها الإنسان والحيوان تغير هو تمامًا.. وهذا هو معنى استئناس الحيوانات.. الكلاب التي كانت ذئابًا.. والقطط التي كانت نمورًا.. فإذا انعكست

البيئة عادت الكلاب ذئابًا، أو عادت الذئاب التي عاشت وسط البشر على أنها كلاب؛ لأن الطبع يغلب التطبع. وفي الشعر العربي نموذج لذلك: أتوا بذئب صغير وجعلوه يعيش مدللاً بين الأغنام. فلما كبر ارتد إلى أصله.. يقول الشاعر القديم:

بقرت شويهتي وجرحت مهري   وأنت لشاتنا ولد ربيب

غذيت بِدَرِّها وربيت فينا   فمن أنباك أن أباك ذيب

.. لم يقل له أحد.. وإنما هو ذئب صغير ضعيف صار ذئبًا كبيرًا!

وجدوا أرضًا كأنها جهنم!

نحن نبحث في السماء عن الأرض، أي أرض أخرى غير كوكب الأرض، والسبب هو أنه لابد أن تكون هناك أراض أو أرضون في هذا الكون الذي لا نعرف له أولاً من آخر، ولا متى بدأ ولا متى ينتهي. فما نزال في اللحظات الأولى من الزمان، وعقولنا وأدواتنا غير قادرة على استيعاب هذا اللانهائي من قدرة اللّه وعظمة حكمته.

ومن ألفي سنة تساءل أستاذنا العظيم أرسطو إن كانت هناك كواكب أخرى مثل الأرض، وإن كان أحد مثلنا أو من دوننا أو أعظم منا يعيش هناك، وقد جاء الرد على سؤاله أخيرًا، فقد اكتشف عدد من علماء الفلك أرضًا أضعاف أرضنا هذه تدور حول نجم صغير، هذا النجم مثل شمسنا ويبعد 15 سنة ضوئية. أي أن الشعاع الذي يخرج منه بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية يصلنا بعد خمسة عشر عامًا. احسبها أنت! يعني لو فرضنا أن واحدًا من هناك قال لنا: آلو.. سوف يستمع الرد بعد ثلاثين سنة!

وهذه الأرض الجديدة لأنها قريبة جدًّا من النجم الذي تدور حوله دورة واحدة كل يوم وعلى مسافة يوم وعلى مسافة مليوني كيلومتر درجة حرارتها ما بين 200 و 400 درجة مئوية، أي قطعة من جهنم!

والعلماء يعرفون بوجود هذا الكوكب عندما يرصدون أحد النجوم فيجدون أنه يهتز في مرحلة معينة من دورانه.. وهذا الاهتزاز لابد أن يكون بفعل جسم قريب منه، راقبوه، رصدوه، سجلوه، حللوه فاكتشفوا هذه الأرض الصخرية الملتهبة.

ومن المؤكد علميًّا أن هناك أنواعًا من الحياة الذكية في أماكن أخرى من الكون.. نحن لا نعرف أين بالضبط، ولذلك أرسلت هيئات الفضاء رسائل رمزية أو رقمية إلى من يعنيه الأمر من سكان الكواكب الأخرى في كبسولات بها صور لحياتنا ولوحاتنا الفنية وموسيقانا وكل لغاتنا لعل أحدًا يدري بنا. وربما حدث بعد ألف أو مليون سنة.. وكانت السفن المهددة بالغرق تلقي بزجاجات مغلقة، وفيها استغاثة لعل أحدًا يلتقطها وينقذ السفن التي توشك على الغرق.. وأحيانًا تصل إلى الشاطئ بعد أن تكون السفينة ومن عليها قد صاروا طعامًا للأسماك من مئات السنين!

ولكن لماذا كل هذا؟ أولاً نريد أن نعرف، والمعرفة غريزة البقاء عند الإنسان العاقل، ولا حدود لتعطشنا إلى المعرفة.. ونحن نمد أيدينا وعيوننا وآذاننا وعقولنا بقدر ما تسمح به العدسات والرادارات والموجات الصوتية. فالذي في أيدينا قليل وقصير والذي نتطلع إليه لا أول له ولا آخر!

وكل يوم يقول العلماء ما قاله أرشميدس: وجدتها.. في كل العلوم.. تمامًا كما قال كولمبوس عندما رأي الطيور فقال: وجدتها.. وكما قال أبونا نوح عندما عاد إليه الغراب وفي منقاره غصن زيتون: وجدتها.. أي الأرض الجديدة!

حتى تختفي هذه العبارة!

قال لنا أستاذنا العظيم أرسطو: إن الدهشة هي بداية المعرفة!

يعني : إذا رأيت شيئًا غريبًا عجيبًا وأدهشك فهذه هي البداية. تقول: ماهذا؟ ولماذا هذا؟ وكيف هذا؟ ويمضي العمر كله، عمرك، أو أعمار غيرك من البشر، يسألون ويعرفون ويعلمون الناس أن يفعلوا مثلهم. وأنا أشتغل بالتدريس في الجامعة كان من ضمن القضايا التي أناقشها مع الطلبة: تاريخ الإلحاد. لماذا؟ لأن مثل هذا الموضوع يصدم الطلبة الصغار يدفعهم إلى التفكير بلا خوف من أي شيء؛ لأن هدفهم أن يفهموا، أن يحللوا، أن يسألوا، أن يتلقوا الإجابة عن هذه التساؤلات.

ومن أجمل الكتب الصغيرة التي كنت أدعو الطلبة إلى قراءتها ودراستها والتأمل طويلاً فيها، كتاب «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي. الكتاب صغير في ثلاثين صفحة، ولكن فيه العجب العجاب من صفاء الذهن وحرية التفكير والشك سبيلاً إلى اليقين. وكنت أقول وما أزال، إن الإنسان يجب أن يتساءل، وأن يحاول أن يجسد هذا الذي يثيره في الدين والأدب والفن والسياسة، وأن يكون التساؤل أسلوبه، وأن تكون معرفة الإجابة منهجه في الحياة.. فالشعوب تقدمت عندما

تساءلت وأنكرت واستنكرت وظهرت أمامها إجابات كثيرة لأناس كثيرين.

وقد تسلطن الفيلسوف الإغريقي أرسطو على الفكر الأوروبي ألفي سنة. ولم يجرؤ أحد على مناقشته؛ أي على التساؤل عن هذا الذي يقول، مع أنه هو الذي طلب إلى الناس أن تسأل. بعبارة أخرى، كانت الكتب القديمة بعد أرسطو، إذا شرحت نظرية في الفلسفة أو في الطب أو في علم النفس أو العلوم الأخرى، تضع باللغة اللاتينية هذه العبارة التي تطبق عين القارئ وتسد أذنيه وتصد عقله.. العبارة تقول: «هكذا قال أرسطو».

فلا عرفت أوروبا النهضة والثورة الفكرية إلا عندما حذفت هذه العبارة؛ لأنه إذا كان أرسطو له رأي، فنحن أيضًا.. وإذا كان هذا رأيه فليس رأينا.. إنه رأي قديم وهو لم يعش في دنيانا.. فالنهضة العلمية والأدبية والفلسفية بدأت بعد أن أزاحوا مثل هذه العبارة التي توصد أبواب الاجتهاد في التفكير، فأرسطو ليس إلا فيلسوفًا من بين مئات الفلاسفة. صحيح أنه عظيم، ولكنه ليس كذلك في كل الذي قال، وهو قد راح ضحية بعض معتقداته أو ظنونه الخاطئة، فقد كان يظن أن ماء البحر به تياران: واحد بارد وواحد ساخن. ونزل إلى البحر عاريًا ليتأكد؛ ولأنه لا يعرف السباحة فقد غرق.. وكان أرسطو يعتقد أن عدد أسنان المرأة أكبر من أسنان الرجل، وليس صحيحًا!

ومادامت مثل هذه العبارة موجودة في فكرنا السياسي والاجتماعي والأخلاقي فلا دهشة إذا ما وقف نمونا ولم نتقدم في أي مجال!

.. قلت ولم أقل!

نحن عرب، ولكننا لا نعرف كل ما حدث ويحدث وسوف يحدث لا في العالم العربي ولا حتى في بلادنا، وإذا عرفنا، فهو القدر الذي تسمح به ظروفنا ومواقعنا من الحياة، والذي نقدر على فهمه؛ ولذلك نندهش جدًّا عندما نكون بين أجانب ويسألوننا عن كل شيء، وطبيعي ألا نعرف، وتكون دهشتهم عظيمة، فكيف لا أعرف فلانًا وعلانًا، وثروة هذا وزوجة ذاك.. فإذا سألونا: ألستم عربًا؟ فسنقول: بلى. ولكننا لا نستطيع!

كنت في واشنطون واشتركت في ندوة مع المحلل العسكري الإسرائيلي رئيف شيف والمحلل السياسي الأمريكي توماس فريدمان، وكان موضوع الندوة: حرب أكتوبر ودور الإعلام. وكان الجمهور باهرًا.. فاللقاء في أروع فنادق العاصمة الأمريكية، ولا أدعي أنني عرفت كل الحاضرين من الساسة والصحافيين والفقهاء ورجال السلك الدبلوماسي.. وكنت أقرأ من ورقة، وكلهم كانوا يفعلون ذلك، ولم تكن نظارة القراءة معي. نسيتها. ولأنني كتبت كلمتي كثيرًا فأكاد أحفظها، فكنت أنظر إلى الورقة كأني أقرؤها. ولابد أن الذي قلته اختلط بالذي قاله الزميلان الإسرائيلي والأمريكي.

ولم تكن المقارنة بيني وبين الأمريكي، ولكن كانت بيني وبين الإسرائيلي.. فقضايانا مشتركة، ونحن نقف متواجهين متضادين، ورغم كل المراحل ودرجات السلام التي حققناها، فالسلام لا يزال منقوصًا، ما دامت قضية القضايا – القضية الفلسطينية – لم تحل. وشيء غريب.. لم يدر بيننا نحن الثلاثة أي حوار من أي نوع، لا قبل ولابعد. ربما المحلل العسكري الإسرائيلي قد قابلته في القاهرة أكثر من مرة. وهو من أشهر وأحسن المحللين العسكريين في إسرائيل وأكثرهم إنصافًا. ثم كان لي لقاء غريب بعد ذلك.. كان اللقاء بين خبراء في السياسة العربية وفي السودان بصفة خاصة، وسألوني، وفي معظم الأحوال لم أعرف ما الذي يقال غير التمنيات والآمال العريضة.. مثلاَ.

– هل ترى حلاً لمشاكل السودان؟

– كل مشكلة لها حل.. إن لم يكن نهائيًّا، فلبعض الوقت.

– وهذا الصراع بين الجنوب والشمال؟

– سوف يدوم طويلاً؛ لأنه بين الجنوب الزنجي والشمال العربي.. المسيحي والوثني والإسلامي.

– وأين دور مصر؟

– ليست مصر وحدها الدولة العربية المسلمة أو التي تعنيها وحدة السودان.

– وهل ترى لأمريكا دورًا؟

- ليس واضحًا، ولكن أثر بريطانيا لم يفلح الزمن في أن يمحوه.

- ترى أن أمريكا وبريطانيا مختلفتان؟

- اختلاف الأستاذ والتلميذ.. اختلاف صاحب التجربة الطويلة المعقدة مع صاحب النظرية الجديدة التي لم يجربها أحد في السودان.

- هذا رأيك؟

- نعم.

والحقيقة كأنني لا قلت ولا هو سأل، وإنما هل عنده أسئلة كثيرة، وأنا عندي إجابات قليلة.. ولا أستطيع أن أفتي في قضية، وأنا مندهش من استمرار هذا النقاش، كأنه من الضروري أن يسأل، ومن الضروري أن أجيب، ونسمي ذلك حوارًا مثمرًا.. مع أنه ليس كذلك!

أزمة ألف ليلة وليلة!

عندما جاء الإنجليزي العظيم سومرست موم إلى القاهرة كان مريضًا، وكان قد تجاوز الثمانين، هزيلاً شاحبًا مرتعش اليدين، وترافقه سكرتيرة جميلة، قابلته وكنت في أول عهدي بالصحافة، شابًّا صغيرًا، سألته فأجاب وشكرته، ولكن لا بد أنه ضحك مني ولم يشأ أن يجعل ضحكته مدوية حتى تزلزلني فأنهار من الخجل، فقد سألته: كيف أن كاتبًا عظيمًا مثلك يعمل في المخابرات البريطانية أثناء الحرب؟!

السؤال فيه استنكار للعمل في المخابرات، مع أنها أحد أجهزة الأمن القومي مثل الجيش والبوليس، ولكن في مثل سني، لابد أن يندهش لذلك، وقال الرجل برفق شديد: أسألك.. إذا كان هناك وباء فهل ترسل الدولة مهندسًا أو مدرسًا؟ فقلت: بل ترسل طبيبًا، فقال: فإذا كان زلزال وبراكين هدمت البيوت فهل ترسل طبيبًا؟

قلت: بل ترسل مهندسًا.

ثم اعتدل مثل أي قاض على المنصة ليكون حكمه النهائي: فإذا كانت الدولة تريد أن تقيس نبض الشارع وتعرف الرأي العام وموقف

الشعوب منها، أليس من الطبيعي أن تبعث بمفكر، وهذا ما فعلته بريطانيا أثناء الحرب؟!

وسألته إن كان قد قرأ للأستاذ العقاد فقال: لا.. لا العقاد ولا طه حسين ولا الحكيم ولا أي شاعر عربي، فقط ألف ليلة وليلة!

ولما كتبت ذلك غضب الأستاذ العقاد وقال: هذا رجل جاهل، إن الأعمى الذي لا يرى الشمس، فالعيب فيه لا في الشمس!

ولم يندهش طه حسين، ولم يستنكر توفيق الحكيم.

وعندما قابلت الأديب السويسري ديرنمات في بيته قال لي: قرأت الأمير أرسلان في لبنان وألف ليلة – أنا ترجمت له ست مسرحيات.

وعندما قابلت الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا أكد لي هو الآخر: فقط ألف ليلة وليلة – وقد ترجمت له خمسين قصة قصيرة.

وفي لقاء مع الأديب السويسري ماكس فريش في بيته قال لي: ألف ليلة وتكفي جدًا – أنا ترجمت له ثلاث مسرحيات!

غلطة من؟ هذه قضية مصرية بحتة، غلطة منا ألا يعرف هؤلاء العظماء أدبنا المعاصر، فنحن لم نترجم أعمالنا إلى الألمانية أو الإيطالية أو الإنجليزية، وليس معقولاً أن نطلب منهم أن يتعلموا العربية لكي يقرءونا، أن نذهب إليهم، لا أن نجرجرهم إلينا.

أما الذي أغضبنا جميعًا وجعل الأستاذ العقاد يفقد أعصابه ويهاجمني أنا – مما أفزعني وأغراني بمقاطعة العقاد – ما قاله الأديب الأمريكي وليام فوكنر، جاء إلى مصر ونزل بفندق مينا هاوس

بالقرب من الأهرامات، ذهبت إليه صباحًا وجدته يشرب خمرًا بلا ماء ولا ثلج، ونظرت إلى وجهه وعينيه وكدت أعتذر عن هذا الوقت غير المناسب، قال: أنت تركت لي ورقة فيها أسماء غريبة، هل هذه أسماء بابلية أو أشورية؟!

ولم تكن سوى أسماء أدبائنا الذين ذكرتهم، وكانت غضبة العقاد لا على الأديب الأمريكي ولكن على كاتب هذه السطور!

قال الأمير وقال شاعر النيل !

كان أستاذنا العقاد يتضاحك معنا عندما يروي ما الذي يفعله بالشعراء الذين يبعثون بقصائدهم إليه باعتباره رئيسًا للجنة الشعر في المجلس الأعلى للثقافة، فإذا كان شعرًا حديثًا، أي غير عمودي؛ فإنه يكتب هذه العبارة: ابعثوا بهذا الكلام إلى لجنة النثر!

وهي عبارة قاسية رافضة لكل محاولات التجديد والإفلات من القافية.

وفي إحدى المرات تلقى ديوانًا مع توصية من أحد الأمراء، فكتب يقول: ياصاحب السمو يدهشني أن ينحط الشعر إلى درجة يصعب على سموك بلوغها بقدميك!

وتلقى الأستاذ العقاد رسالة من صديقه الأستاذ المازني.. وكان المازني مفكرًا ساخرًا.. وقد كتب للعقاد يقول: هذا الذي بين يديك فيه كلام حلو وفيه كلام غث.. والرأي لك!

وبعث إليه العقاد برسالة طويلة يقول فيها: جاءني كلامك تعليقًا على كلامه.. وكله كلام.. وإليك هذا العنوان.. أما العنوان فهو المكان

الذي نلقي فيه (الزبالة) خارج القاهرة! وكان الأستاذ العقاد يضحكنا على مثل هذه الردود القاطعة. فحكى لنا أن قائدًا عسكريًا بعث إلى قائد عسكري يقول له: إذا جئت بلادكم فسوف أقتل رجالكم ونساءكم وأطفالكم وأهدم على الأحياء بيوتهم وأهلك الزرع والضرع!.. وجاءه الرد: إذا....!!

حكى لنا الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكان أستاذنا في الفلسفة الإسلامية، أن أحد الخلفاء الظرفاء أرسل إلى أحد الشعراء يقول ما معناه: دعوت اللّه أن يلهمك السداد ويهديك إلينا، فرد عليه الشاعر: دعوت اللّه ألا..

ويقال: إن الشاعر الألماني هيني ذهب إلى باريس للقاء الشاعر الفرنسي هيجو. وانتظره بعض الوقت ريثما يخرج من الحمام. ونظر إلى تمثاله ودار حوله، وخرج! فتلقى رسالة من الشاعر الفرنسي تقول:

– لماذا؟

فجاء رد الشاعر الألماني: لما رأيت تمثالك وجدتك تشبهه تمامًا.

فبعث هيجو يقول: ولكني كنت سأتحدث إليك.

فرد عليه هيني: هذا ما سمعته من تمثالك!

وفي كتب الشعر ورسائل الشعراء يتحدثون عن رسالة أمير الشعراء أحمد شوقي إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم، ففي سنة 1917 كان شوقي منفيًا في الأندلس فأرسل هذه الأبيات لحافظ إبراهيم:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على   عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلاً بعثتم لنا من ماء نهركم   شيئًا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة   ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات:

عجبت للنيل يدري أن بلبله صاد   ويسقي ربى مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده   ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه   وقد نأينا وإن كنا مقيمينا..

فلا أروع ولا أوقع ولا أجمل ولا أصدق!

ونسميها حياة فكرية !

تغيظني مجلة «البيت» الإنجليزية والأمريكية، فهذه الصور للبيت ليست في بيتنا، ولا يمكن أن تكون، وعندما أقول بيتنا، فإنني أتحدث عن الجوانب التي تهمني، أو التي أعيش فيها أو أمضيت فيها نصف أو ثلاثة أرباع عمري، ولا أتحدث عن غرفة النوم ولا غرفة الطعام ولا قاعات الجلوس وإنما عن غرفة مكتبي، وأسميها غرفة تجاوزًا.. وإنما يمكن أن أقول إنها مخزن كتب، فأنا أتخبط فيها يمينًا وشمالاً وأصطدم بها ذهابًا وإيابًا.. فالكتب تحت قدمي، وعلى جانبي المكتب وورائي وأمامي.. وأنا أختفي وراءها أو أتوارى منها فيها.. وفي جانب من المكتب، يوجد كمبيوتر وفاكس وهواتف وأدوات إعداد الشاي.. وتحت منضدة الشاي، توجد علب عسل النحل، وهذه بعض العقاقير.. وأكوام من الورق الأبيض، وعلى مكتبي عشرات من الأقلام هدية ممتدة من صديق عزيز – رحم اللّه أيامًا سعيدة قليلة كانت لنا.

وأنا لا أشكو من أن كتبي ليست منظمة ولا منسقة.. فذلك صعب ولا أعرف كيف يستطيع أحد أن يجعل كتبه مثل كتيبة من الجنود يشير إليها أن تقف وأن تقعد وأن تخرج وأن تدخل بإشارة من يده.. أو إذا أراد أن يعرف أشار إليها فانفتحت صفحاتها وخرجت من بين الصفحات كلمات تقول له: «شبيك لبيك نحن جميعًا بين يديك»...

ربما يستطيع الكمبيوتر أن يؤدي هذه المهمة، هو فعلاً يستطيع ولكنه يوجع العين.. وإذا استطعت ساعة، فلا أستطيع ست ساعات كل يوم، زمان كنت أستطيع أن أعرف أي كتاب من لون الغلاف، مثلاً إذا أردت أن أبحث عن كتاب «علم الجمال» للفيلسوف الألماني هيغل استدعيت صورته ليظهر أمام عيني.. إنه بالفرنسية في أربعة أجزاء؛ الغلاف أصفر والحروف بالأزرق.. هذه الترجمة الفرنسية، أما الترجمة الإنجليزية فهي اللون الأزرق الفاتح والكتابة بالأسود..

أما الآن، فقد زاد عدد الكتب على خمسين ألفًا، وفي أكثر من غرفة وقاعة أصبح من الصعب أن أعرفها كلها.. وأصبح من الصعب أن أراها على بعد.. فكان لابد من السلّم أصعده ومعي بطارية مضيئة وأحيانًا منظار مكبر.. ثم اشتريت كاميرا يابانية يستخدمها طلبة الجامعات في قاعات البحث عندما يسلطونها على السبورة ويلتقطون صور ما يشرحه الأستاذ.. وكنت ألتقط صورًا للرفوف البعيدة.

ولذلك لم أعد أطيق النظر إلى مجلات «البيت» لأنها تؤكد لي في كل لحظة ولحظة أن هذا البيت لا أستطيع أن أبلغه أو أصفه، هو حبر على ورق، ولو انتظمت مكتبتي وانضبطت لوجدت صعوبة في الإقبال عليها والحياة اليومية بينها.. ففيها ومعها لم أر شروق الشمس ولا غروبها ولا الهلال ولا القمر عشرات السنين – كأنني تحت الأرض – .. أو تحت أنقاض الفكر العالمي.. فأنا من أهل الكهف، نهاري بلا شمس، وليلي بلا نجوم، وطعامي ورق، ودمي حبر.. هل هذه حياة؟ واللَّه لا !

مددت له يدي وقال ما أدهشني!

عندي حكايات وتجارب تملأ هذه الصفحة لو قلتها أو كتبتها عن المنجمين، أما أنهم يجتهدون ويصيبون أحيانًا فلا شك عندي في ذلك، وليس عندي تفسير علمي لهذه البراعة أو هذا التخمين. إن الفرنسيين عندهم موسوعة اسمها: (موسوعة الفنون الظنية) .. أي أن الذي يقوله هؤلاء الناس في معرفة أخبار الغد وفيها أكثر من ألف طريقة، نوع من الظن، فليكن. ولقد عرفت عددًا منهم في مصر وفي العالم، قابلت. مددت يدي وقلبت فنجاني وانتظرت. فقالوا عجبًا. والحكايات كثيرة.

لي صديق قارئ كف اسمه محمد جعفر، في سنة 1961 قال لي: إن شاء الله عند نهاية هذا العام لن تكون في موقعك هذا، لا في الغرفة ولا في مؤسسة (أخبار اليوم). وكان ذلك في شهر مايو، ويوم الكريسماس صدر قرار من الرئيس عبد الناصر بوقفي عن العمل، ويوم رأس السنة صدر قرار بفصلي من الصحافة ومن التدريس في الجامعة، وفي نفس اليوم قال محمد جعفر للكاتب الكبير مصطفى أمين إنه وأخاه التوءم علي أمين سينفصلان حتى الموت، وبعدها بشهور دخل مصطفى أمين السجن تسع سنوات.

وجاء أخوه من الخارج ليدخل المستشفى ويموت. يرحمهما اللَّه!

وكان لي صديق راهب إيطالي اسمه فيردي، ذهب إليه نجيب محفوظ عندما كان طالبًا في الجامعة فشخط فيه وقال له: إنت كنت عاوز تموت نفسك، إنت حتكون أعظم واحد في مصر.. امشي اطلع بره!

وفي ذلك اليوم كان في نية نجيب محفوظ أن يلقي بنفسه في النيل!

وأعرف العرافة التي نشرت في صحف إسرائيل عن أن الرئيس السادات سوف يموت في نهاية هذا العام، وانزعجت وقررت أن أنقل الخبر للرئيس، وقلت له وكان رده: الأعمار بيد اللَّه. وقلت لوزير الداخلية النبوي إسماعيل فقال لي: أنا احترت مع الرئيس، لقد نبهته كثيرًا ولكن لا فائدة!

وكنا في كينيا وذهبنا مع عدد من الصحافيين. وفي قلب إحدى الغابات كان عراف القبيلة عاريًا وأمامه قفص به ثعلب، وعلى كل واحد منا أن يمسك مجموعة من العظام ينفخ فيها، ويخرج الثعلب من القفص يشمشم فيها ثم يقلبها برجليه.. ويدخل القفص ويقول لنا المترجم، وكان من نصيب صحافي أمريكي أن قال له: بعيدًا جدًّا زوجتك وقعت لها حادثة سيارة ودخلت المستشفى.

هذا الرجل عريان في غابة ولم يبرحها منذ ولد.. ولا يعرف شيئًا عن الدنيا..

أولها ثعلب وآخرها بعض العظام والسياح من كل مكان، واتصل الصحافي الأمريكي يسأل عن زوجته.. فكانت في أحد المستشفيات. كيف عرف الرجل؟ ليس هو السؤال؛ لأنه لا توجد إجابة منطقية عليه. ولك أن تستنتج ما تشاء.

وكان قارئ الكف محمد جعفر قد أعطاني ورقة تنبأ فيها بما سوف يحدث حتى نهاية القرن العشرين. وفزعت ولم أشأ أن أقرأها، وظننت أنني مزقتها، والحقيقة أنني تمنيت ذلك، وفوجئت بها منذ يومين، وترددت في قراءتها، وقرأتها. شيء عجيب لما توقعه ثم حدث.

هل هذا علم؟ ليس علمًا. إذن ما هو؟ لا أعرف!

ياقمرًا غاب .. فهل يجيء !

كان لي صديق، غاب، اختفى، لم أعد أرى له صورة ولا أسمع له صوتًا، هو الذي ذهب، ومعه حق، وشعرت بالوحدة، بالغربة، بأن الدنيا بها ثقب طويل عريض وأنها تتسرب، تجف، تغرب، تختفي، حزنت.

لا أنا ظالم ولا هو مظلوم، ولا هو ظالم ولا أنا مظلوم، وإنما هذا هو أقصى درجات احتماله، وهذه نهاية درجات انتظاري، أو توشك على نهاية، فما الذي انتهى بيننا.

لا شيء في هذه الدنيا ينتهي، وإنما كل شيء يصير شيئًا آخر، الحي يموت ويكون ترابًا يتحول غذاء إلى نبات والنبات غذاء إلى حيوان والحيوان طعامًا للإنسان، ولا شيء ينتهي، لا المادة تنتهي ولا الطاقة ولا الحياة ولا ما نشعر به ولا ما نتمنى ألا نشعر به، وكما أن هناك غروبًا وشروقًا وحياة وموتًا ثم حياة، فكل شيء دوار، أولنا آخرنا وآخرنا أول لغيرنا.

ما الذي بين الناس؟ ما الذي يجمع بين الناس؟ وما الذي يفرقهم؟ ما الذي يرضي؟ وما الذي يغضب؟ ما الذي يسعد؟ وما الذي يتعس؟ كل شيء سبيل إلى أي شيء وكل شيء؟

ما الذي يحبه الناس في الناس وما الذي يكرهون؟ وما الذي يمسك الناس؟ ما الذي يتمسك به الناس؟ ما الذي يحبه الناس وما الذي يكرهون؟ ومن الذي يحبون ومن الذي يبغضون؟ أنت لا تعرف، ولا أنا، وإنما أنت تجسد نفسك في حالة حب، فإذا كنت تحب فأنت لا تجد نفسك، وإنما أنت أضفت نفسك في غيرك لتجد نفسك أكبر وأروع، ما الذي يباعد بين الناس؟ ما الذي يشد الناس بعيدًا عن الناس؟

أنت تجد نفسك قد تباعدت فبعدت، وأنت لا تريد ذلك، فمن الذي يريد، من الذي يريد لك ألا تكون؟ لا أحد يعرف، صدقني.. إذا أحببت فأنت لا تعرف كيف ولماذا. وإذا جف الحب فيك فأنت لا تعرف ما الذي جفف نضارة المشاعر.

تعاسة؟ واللّه تعاسة، فالذين يحبون سعادتهم تعاسة، وتعاستهم هي سعادتهم، بالضبط ما الذي يريد أي انسان من نفسه ومن الذي يحب؟ يريد الصعب، يريد الممكن، ثم بعد ذلك المستحيل، فلماذا لا يفعل ما دام هذا يسعده؟ إنه لا يقوى على المستحيل ولا يرضى بالممكن، إن أقصى درجات الحب ألا يكون المحب، أن يذوب، أن يفنى، ألا يعرف قلبًا من عقل من غد من أمس، ويريد ألا يفيق، ويريد من حين إلى حين أن يصحو وهو نائم، وأن ينام صاحيًا، جنون؟ الحب كذلك.

المحب هو الذي لا يشعر بأنه يحب، ولا يعرف بالضبط ما هو الذي يملأ جوانبه، ليلاً ونهاراً، والذي لا يحب الخسارة والأرباح في صفقة العشق، فخسارة الحب هي مكسبه، ومكسب الحب ألا يكون مكسب، وما من حب إلا في أعماقه رغبة في الفرار، وما في فرار إلا في

أعماقه رغبة في الرجوع والإقامة والاستقرار، ولكن كيف يخفق قلب ويظل ساكنًا؟ كيف يكون شوق ولا يكون قلق؟ كيف يكون قلق ولا يكون؟ كيف يكون خوف ولا يكون يأس؟ كيف يأس للآخرين؟ كيف حزن بلا نهاية؟

أهي صرخة في واد؟ كل الصرخات في الوديان بلا صدى، فوديان الحب تنهش الأصداء والأصوات، وضياء الحب هي (بقع سوداء)، وهي سوداء؛ لأنها تسد الأصداء وتسحبها وتدفنها، ولأنها تطبق العين فلا ترى، وتخرس القلب، وتلغي الزمن؛ فلا يوم ولا غد ولا أمس، ولا حب ولا كراهية، ولا أنا ولا أنت.

حزين؟ واللَّه حزين، ولا أمل؟ لقد أصبح ترفًا عظيمًا وبس! وبس!

ثعلب بين الرجال
ذئب بين النساء !

كلما حاول الرجال قصف عمره جاءت النساء وأضافت له عمرًا جديدًا. صدرت عنه عشرة كتب سياسية، وعشرون كتابًا عاطفيًّا. لقد عرضت صورته على فنانة معروفة قالت: ده أقرع.. وعلى فنانة أخرى قالت: أعمش.. وقصير ولا أعرف لماذا يحبونه؟!

إنه عاشق وليس محبًّا ..

والعاشق هو الذي يشتهي الكثير من النساء.. والمحب هو الذي يهوى واحدة فقط.. العاشق له معدة تهضم الزلط، والمحب له قلب لا يهضم ولا يأكل ولا يشرب.. العشق: صحة. والحب: مرض. العاشق لا يفرق بين طعام مسلوق وطعام مشوي.والمحب لا يأكل إلا طعامًا واحدًا. ولا يعرف إلا وجهًا واحدًا ولا يتذوق إلا طعامًا واحدًا. والعاشق ذواقة. والمحب مدمن..

هذا الرجل هو الرئيس الفرنسي السابق فرنسوا ميتران. ما أكثر أعداءه من الرجال، وما أكثر عشيقاته..

رأيته في فرنسا. ورأيته في مصر. وكان في مصر يكتب أمامنا المحاضرة التي سوف يلقيها. لقد كان حريصًا على أن يؤكد لنا أنه هو الذي يكتب خطبه. ولم يكن في حاجة إلى ذلك. فهو أديب وناقد فني وله فلسفة، وأقوى فلسفاته في السياسة، وأجمل فلسفاته في العشق. كل رجل يحدثك عنه، يمط شفتيه ويقول لك: احترس.. وكل امرأة تتحدث عنه تدوخ وهي تكلمك وتتراجع في جلستها وتتنهد وتقول: رجل ولا كل الرجال!

كان من عشيقاته عرافة مشهورة. أصدرت كتابًا بعد وفاته. خلاصة الكتاب أن فرنسوا ميتران له برج خاص غير أبراج البشر.

وتقول: كلما حاولت أن أحدد مداره ومساره وجدت الطريق صعبًا.. فجاذبية ميتران أقوى من جاذبية الكواكب للأقمار حولها. تقول العرافة الفرنسية: جلست إليه يومًا كاملاً. لا توقف عن الكلام ولا مللت.. إنه يحدثك عن نفسك. ومن التي تمل من يحدثها عن نفسها وجسمها ودفئها والشوق إليها وهو بين يديها.. أو.. ما أروعه!

وتنظر أنت إلى صوره تبحث عن هذه الروعة فلا تجدها. بل إن ميتران إذا تحدث تكرمشت شفتاه وارتعشت عيناه. ولكن اللاتي يتحدث إليهن، يغمضن العين ويفتحن الأذن والأحضان..

وسئل ميتران عندما نشرت إحدى الفنانات أن فرنسوا ميتران رجل فقط.. يعني لا هو سياسي بارع ولا هو من أعظم رؤساء فرنسا، وإنما هو رجل. أي أنه استطاع أن يؤكد لها عندما يكون معها أنهما رجل وامرأة والدنيا من حولهما قد خلت من كل الناس ومن كل شيء. وهي قدرة فذة !

العاشق ميتران جائع عطشان والمحب ميتران مدمن لطعام واحد، لكلام واحد، لوجه واحد. العاشق يفضل السير نائمًا في الغابات تحت الأشجار وفوقها. والمحب في يده وردة صفراء يقبلها يشمها.. فإذا ذبلت ذبل هو أيضًا. والعاشق سياسي. والمحب شاعر. العاشق رجل تمرس على الحياة ومشاكلها وهو خبير في السباحة مع التيار وضده، وفي الأنهار والبحار.. ولكن المحب يكاد يغرق في البانيو والصابون المعطر وينام وهو يستحم؛ لأن المحب آمن، والعاشق لا أمان له ولا أمان معه..

والشاعر القديم يقول:

إذا شاب شعر المرء أو قل ماله   فليس له في ودهن نصيب

وهذا الرجل لا عنده شعر يشيب ولا عنده فلوس. ولكن عنده خبرة ولغة وقدرة على أن يقنع المرأة الواحدة أنها كل النساء، وأن النساء قد متن جميعًا، وأنها هي حواء هذا الكون. وكن يصدقنه !

ولما سألوه عن السيدة مرجريت تاتشر المرأة الحديدية التي حكمت بريطانيا عشر سنوات قال: لها شفتا مارلين مونرو وعينا السفاح كاليجولا!

فلا قال إنها سياسية عظيمة، ولا قال إنها أقوى الرجال الذين حكموا بريطانيا، وإنما تحدث عنها كامرأة – مع أن أحدًا لم يطلب إليه أن يعشقها أو يحبها.. وإنما هو رجل مع المرأة وأي حيوان آخر مع الرجال!

ولما دخلت بريطانيا الحرب مع الأرجنتين التي اعتدت على الجزر البريطانية– فوكلاند.. استخدمت الأرجنتين صواريخ فرنسية فأغرقت عددًا من قطع الأسطول البريطاني. فذهبت إليه تاتشر تطلب منه أن يكشف لها عن سر الموجة التي يستخدمونها لإطلاق هذه الصواريخ.. فأعطاها الموجة السرية، فكان الأسطول البريطاني يصدر للصواريخ أوامر بالابتعاد والضلال في المحيط. ولما سألوه بعد أن رآها وهي ترجوه أن يخلصها من السلاح الفرنسي الخطير. قال: بل كلها مارلين مونرو !

ولم يقل إنها سيدة سياسية. وإن من السياسة أن تصادق عدوك وأنت كاره له؛ لأن السياسة هي فن السفالة الأنيقة. أي أن السياسي هو الشرير حلو الكلام رفيق اللمسات جميل اللحظات ويقطر سمًّا !

لما رأى الرئيس السادات السيدة جئولا كوهين تمزق اتفاقية السلام بيننا وبين إسرائيل قال الرئيس السادات: منظرها وهي تبكي وتتوسل وصوتها الذبيح.. شفت الحكاية دي يا أنيس !

فقلت: ياريس هذه نظرة رجل لامرأة.. وليست لسياسي كبير لسياسية!

فقال متصنعًا الغضب: ما هو أنا راجل يا أخي !

صح ياريس. ولكنهم في أوروبا رجال لايخافون الرجال. أما في بلادنا فالرجال يتوارون في ملابس ناعمة كأنها ملابس النساء حتى لايقال إنه رجل إنسان ككل البشر له قلب يدق..

وعندما كنت أنشر (في صالون العقاد - كانت لنا أيام) في مجلة أكتوبر سألني الرئيس السادات: مين البنت الحلوة اللي بتتغزل فيها دون حياء.. مين دي !

ولم يعلق الرئيس على القضايا الفلسفية والأدبية التي يتخيرها العقاد في صالونه الأدبي. أما هذه السيدة التي يسأل عنها وقد بالغت في وصفها وجهًا وشفتين ونهدين وساقين فهي إيطالية وزوجة الشاعر عبد الرحمن صدقي..

صعب أن نكشف مشاعرنا. صعب أن نعترف بأننا رجال وأننا نرى ونتمنى، ونغرى ونحلم.. هل نحن كذابون؟ نعم. هل نحن خائفون؟ نعم. منافقون؟ نعم..

أما في فرنسا فقد كان للرئيس ميتران عشيقة. والعشيقة تقيم في القصر الجمهوري. وكانت زوجته تعلم.. وأبناؤه يعرفون أن لهم أختًا. وكل الصحف. ولكن احترام الحرية الشخصية فوق كل اعتبار. فلم يتكلم أحد. ولا الصحف. حتى خرج الرئيس الفرنسي بابنته في العشرين من عمرها وقدمها للصحف. وقدمها لزوجته وأولاده فصافحوها كأنهم لا يعرفونها..

وقد ضحك الرئيس الفرنسي كثيرًا عندما سألوه عن رأيه في علاقة الرئيس كيندي بمارلين مونرو.. وعن علاقة الرئيس كلينتون بمونيكا.. فقال ميتران ما يقوله أي رجل فرنسي: ياه واحدة فقط؟!

أي عشيقة واحدة. ولماذا ينشغل الأمريكان بعلاقات الرئيس وكلهم لهم علاقات وفي ظروف أفضل من ظروفه. فالرئيس محاصر

في كل مكان يذهب إليه؛ لأن رؤساء الدول تراقبهم الدولة كأشد الناس عداوة لها.. فالبنادق والمدافع والعيون تحيط به من كل مكان..

ياولداه لم يقل الرئيس الفرنسي كلمة واحدة عن عشيقاته. وإنما المعشوقات قلن ونحن قرأنا. وتنهدنا نحن أيضًا. إنهم سعداء في فرنسا، عندهم شجاعة وفي حصانة من ألسنة الناس؛ لأن الحرية الشخصية حصن منيع..

وإذا كانت السياسة قفصًا، فالعشق غابة. وإذا كان السياسي قصير العمر، فالعاشق لاعمر له. فالعاشق له شهادة ميلاد، ولكن ليس له تصريح بالدفن.. لأن الحب له جناحان: الخيال والأمل، أطول عمرًا من المصلحة التي لها جناحان: الواقع والطمع..

عاش ويعيش ميتران عاشقًا، وفي ستين داهية سياسيًّا هو وكل الذين على شاكلته.. في بلادنا وبلاده

حبس انفرادي .. وزنزانة في السماء!

رأيت سفن الفضاء في معرض الطيران في باريس ورأيتها في المعرض الفضائي في موسكو، ورأيتها؟ قاعدة كانفرال الأميركية.. وكانت قبيحة الشكل خشنة مظلمة.. وكذلك كانت أنابيب الطعام التي يمتصها رواد الفضاء وملابسهم القبيحة.. ثم رأيتها وقد صارت ناعمة أنيقة.. ورأيتها عندما كانت قذيفة من الحديد الصفيق.. زنزانة.. ورأيتها بعد ذلك أنيقة مضيئة كأنها جزء من طائرة فخمة. ولكنها في جميع الأحوال زنزانة.. والرائد قد حكموا عليه بالسجن الانفرادي.. كأنه ارتكب جريمة. وجريمته أن لديه شجاعة انتحارية في الانطلاق إلى الفضاء في عزلة موحشة! وكان أول رائد فضاء في التاريخ جاجارين الذي انطلق سنة 1957 حول الأرض لمدة 108 دقائق.. ثم جاء رائد الفضاء تيتنوف الذي دار حول الأرض سنة 1961 لمدة خمس ساعات.. وكان أول من أكل وشرب ونام ومرض!

ولما دعاني رائد الفضاء السعودي الأمير سلطان بن سلمان إلى لقاء وندوة مع رواد الفضاء في الرياض، شاء الحظ أن أجلس إلى جوار تيتنوف، وسألته وكان قد ضرب رقمًا قياسيًا أكبر في الدوران حول الأرض مئات الأيام. قال وأطال. قال وهو يأكل: أنه في أول الأمر كان يتفرج من فوق على الكرة الأرضية – ثم ملأ فمه بالأرز ـ

وأنه حاول أن يعرف مدينته هو ـ ووضع قطعة من اللحم في فمه ـ ثم حاول بعد ذلك أن يرى البيت الذي يعيش فيه وملأ فمه ـ بالأرز واللحم ومزيدًا من اللحم!

وخشيت أن يتذكر رحلته الأولى فيصاب بالمرض. ومنذ أيام ظهر رائد الفضاء الأميركي (مايك فول) الذي فاق كل الرواد في بقائه في الفضاء 374 يومًا و11 ساعة و19 دقيقة.. من بينها أربعة أشهر في المحطة الروسية الدولية (مير) وستة أشهر في المحطة الدولية، وتصادف وجوده في المحطة الروسية عندما شبَّ حريق حين ارتطمت بها سفينة التموين فراحت تدور حول نفسها.

وتطلعت إلى وجه الرائد الأميركي وأصابعه وأسنانه عندما يضحك.. الأعصاب من حديد والأسنان من العاج وبشرته مشدودة لامعة وعيناه لهما نظرات ثاقبة ـ إذن فالسجن الانفرادي في زنزانة مكيفة الهواء والضغط والجاذبية، وبها مئات العيون الإلكترونية لم تؤثر على أجهزة التنفس والهضم والأعصاب!

والعالم كله لم ينس ما قاله جاجارين ذلك الجندي الساذج عندما ارتفع إلى الفضاء فقال: إنني لم أجد الله! وحاول الاتحاد السوفيتي أن يدافع عن عبط هذا الجندي البسيط الذي دفعه الغرور إلى مثل هذه الحماقة. أما رائد الفضاء الأميركي فقال بمنتهى الهدوء والعقل: إن الكون شيء رائع مروع.. وسوف يحتاج الإنسان إلى ملايين السنين ليعرف جانبًا من حكمة الله. جلت قدرته!

هم استأنفوا حياتهم العادية كأنني لم أعد لهم من السماء وأنا أستأنف نشاطي كأنني ما أزال في السماء ـ عجبي!

الجواب من عنوانه غير صحيح!

اذهب مع زوجتك أو أختك أو بنتك أو حتى حماتك لزيارة صديق. وعندما تعود إلى البيت اسألها ماذا رأت.. مفاجأة! فكل الذي سوف تحكيه وترويه لك أنت لم تره إطلاقًا. فأنت لم تلاحظ أن زرارًا من جاكتة صاحب البيت مفقود.. وأن جرحًا على خده الأيسر. فقد كان يحلق ذقنه بسرعة.. أما عن الأطباق والشوك والسكاكين فاسمع منها العجب وصدّقها. فهي قد لاحظت أن الشوك ليست من طراز واحد.. كما أن هناك فنجانًا مكسورًا كان على المائدة.. وأن هناك فتلة في فستان صاحبة البيت. وأن هذه الفتلة تدل على أن الفستان كان قد تمزق وأن إخفاء ذلك قد تم بسرعة. فهي قد أمسكت إبرة وفتلة ولم تحسن قطع الفتلة.. ولما قامت صاحبة البيت ترد على التليفون ظهر أنها نسيت أن تكمل الماكياج.. ومثل هذا يقال عن الطعام أو عن الحلوى أو عن الشاي أو عن ملابس الخادمات والأطفال.. كيف؟ الجواب سهل: فالمرأة تهتم بالتفاصيل..

أما نحن فننظر إلى عموم الأشياء وننظر إلى الوجه كله.. وإلى الجسم كله وإلى البيت كله.. من دون أن نتوقف عند التفاصيل هنا أو هناك.. ونحن الذين نعرف الجواب من عنوانه.. فالعنوان يخدعنا عادة.. والحقيقة أنه لا يخدعنا وإنما نحن لا ندقق لا في العنوان ولا

في حروفه ولا النقط التي فوق أو تحت الحروف ولا إن كانت الألف مثل عود القصب أو مثل الثعابين..

أما المرأة فهي توقفت عند الأظافر ولاحظت أنها نظيفة لامعة.. أو أنها ليست كذلك.. وتوقفت عند الجزمة ورأت إن كانت لامعة ونظيفة. ومن جزمتك ومن أظافرك تحكم عليك المرأة إن كنت زوجًا صالحًا أو كريمًا أو بخيلاً. كيف؟ اسألها..

سمعت هذه القصة من الملحن المطرب المرحوم سيد مكاوي. قال: إن زوجته ذهبت لحضور أحد الأفراح، وعادت تقول: العروس ولا حاجة.. أنفها كبير وعيناها ضيقتان.. وشفتاها كأنهما نتيجة سكين قد انغرس في وجهها. وعروقها زرقاء ظهرت في ساقها رغم الجورب الحريري الأسود.. أما العريس فهو يشبه شيخ البلد في مصر الفرعونية.. دماغ كبيرة وكرش وعينان جاحظتان وشفتان زنجيتان.. وأوقفها سيد مكاوي عن الاستطراد وقال لها: كل هذا في العروسين.. يا نهار اسود أمال يا ولية انت اتجوزتيني علشان إيه؟! وقال لي الشاعر المرحوم عبدالرحمن صدقي، مدير الأوبرا الأسبق: إن زوجته الإيطالية ذهبت إلى الكنيسة وعادت مكتئبة فسألها فقالت له: القسيس أعوذ بالله يشبهك تمامًا.. شكله قبيح وصوته غليظ.. وكثير العطس والسعال. فقد أفسد الصلوات وكان من الواجب تنحيته من المكان والمكانة؛ فضحك عبدالرحمن صدقي وقال لها: يا بنت ال... يعني أنت تعيشين معي رغم كل هذه العيوب؟! قالت: نعم، احمد ربنا. قال: الحمد لله الذي وهبني على الكبر هذه المصيبة الإيطالية. سألته: ماذا تقول؟ قال: ولا حاجة.. إنني أدعو الله أن يطيل في لسانك ويقصف عمرك..

ـ شكرًا!

الحوض الثري في داخلك!

أتأكل وتشرب وتتقلب وتتشعل النار في الذي ابتلعته ثم تجري وتقف.. وتنام وتقعد والنار تتفاوت درجاتها في جسمك من التفكير في شيء أو قلة التفكير في شيء أو صعوبة التفكير أو الهضم لأي شيء.. وبعد ذلك تتصور أن معدتك تستريح وأمعاءك أيضًا.. وكذلك بقية الأعضاء والغدد والسوائل الحمراء والبيضاء والصفراء، كل ذلك يجري ويتخبط ويتلاطم في داخلك مدى الحياة التي طولها سبعون أو ثمانون عامًا.. كل ذلك يحترق في داخلك دون أن يصاب فيك شيء بشيء!

أنت حوض ماء ونار ودخان وغازات وعواصف وبرق ورعد.. والحوض يتقلب يمينًا وشمالاً.. يتسع ويضيق.. ويلتوي وينحني وينكسر.. ومجالات مغناطيسية وكهربائية وتخاريف وأوهام وأشباح وأرواح.. ويعاد صبغ كل هذه السوائل بالأسود والأبيض.

كل هذه الاحتراقات والاختناقات التي تدور في داخلك.. وبعمليات شديدة التعقيد.. دون أن يحترق سلك واحد.. دون أن تفرقع لمبة واحدة.. دون أن تنحبس السوائل في مكان واحد.. دون أن تعتصر داخلك لكي تنقذ داخلك من خارجك.. أي من العوامل الخارجية..

لو قدر لك أن ترى شكل السوائل التي تنطلق في جسمك لوجدتها حمراء زرقاء وصفراء وخضراء وسوداء.. ووجدتها ترتعش وتنتفض، ويخيل إليك أنها مجموعة من الثعابين أو الديدان.. أو العفاريت.. هذا هو أنت في أي وقت وفي أي موقع..

وأنا لست فنانًا سرياليًّا أو تجريديًّا.. وإنما أنا أنظر إلى لوحة رسمها فنان كبير يصور بها الإنسان.. فيقول: إنه مجموعة من بقع الحبر من كل لون لا تجف أبدًا.. يخيل إليك أنها نار من بعيد.. فإذا اقتربت فهي مياه رائحتها كريهة.. ولا يعرف الإنسان أين هي العبقرية في جسم الإنسان.. هناك عبقرية وعظمة.. ولكن الإنسان لا يعرفها.. إنه عاجز أمامها.. ولكن كيف استطاعت هذه الأبخرة في جسم الإنسان أن تجعله هكذا عظيمًا؟

والجواب: لأنه ليس هذه المساحات اللونية فقط.. إنه هو الإحساس الأليم العميق بأنه كائن تافه.. وفي نفس الوقت لا يريد أن يكون كذلك!

أمنت لما أقمت العدل بينهمو!

حديث نبوي شريف معناه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد رأى في نومه من يأتيه بكوب من اللبن فشربه إلا قليلاً.. أما القليل فأعطاه لعمر بن الخطاب.. وسئل الرسول عن المعنى فقال: اللبن هو العلم!

أي هكذا كان عمر بن الخطاب عالمًا..

ويقول أستاذنا عباس العقاد عن عمر بن الخطاب: كان أديبًا مؤرخًا فقيهًا عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرائف الأدبية.. وكان يروي الشعر ويتمثل به ويحرص على روايته.

وقال أستاذنا طه حسين: من ذا الذي يرتاب في فهم عمر للشعر وعلمه بأسراره ودخائله، وهو أذكى قريش قلبًا وأبعدهم بصيرة وأشدهم دقة ورقة شعور.. وهو الذي كان يحب (زهيرًا) ويقدمه على الشعراء لأسباب فنية خالصة..

أما الذي قاله الأديب السعودي عمر بن حسين الموجان فكتاب ضخم ممتع عنوانه: «ديوان عمر بن الخطاب ـ السيرة الأدبية والشعرية ـ دراسة منهجية» في 460 صفحة وعن دار «سنا الفاروق للنشر» وقد قصد الأستاذ الموجان بديوان العرب، أي بالشعر عن العرب ثم عند الرسول صلى الله عليه وسلم.. وكيف كان يطرب للشعر

ويطلب سماعه ويشجع عليه.. ثم عمر بن الخطاب الشاعر الأديب الناقد الخليفة القاضي العادل والإنسان النبيل والشجاع الشريف. وكان عمر بن الخطاب يعرف أقدار الشعراء ويكره التجريح والهجاء.. ويشيد بالحب الشريف.. ولما سمع امرأة تتغنى بشاب حليوة اسمه نصر بن حجاج أتى به وحلق شعره فازداد جمالاً فنفاه إلى البصرة. وكانت المرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وفي قصيدة (العمرية) لشاعر النيل حافظ إبراهيم يقول:

جنى الجمال على (نصر) فغرَّبه   من المدينة تبكيه ويبكيها

وكم رمت قسمات الحسن صاحبها   وأتعبت قصبات السبق حاديها

وزهرة الروض لولا حسن رونقها   لما استطالت عليها كف جانيها

جـــزرت لمتـــه لما أتيت بـــه   ففاق عاطلها في الحسن حاليها

فصحت به: تحوَّل عن مدينتهم   فإنها فتنة أخشى أعاديها

وفتنة الحسن إن هبت نوافحها   كفتنة الحرب إن هبت سواقيها

ووصف حافظ إبراهيم مبعوث كسرى الذي جاء إلى لقاء عمر فوجده نائمًا نومًا هادئًا عميقًا:

وقال قولة حق أصبحت مثلا   وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها

أمنت لما أقمت العدل بينهمو   فنمت نوم قرير العين هانيها

فاقرأ كتاب الأستاذ الموجان واستمتع..

نحن وخز ضمير الناس!

الكاتب هو ضمير الشعب.. بل يجب أن يكون وخز الضمير..

كما أن الضمير يقفز بصوته القوي الداخلي ويقول لك خدها مني.. هذا حرام.. هذا عيب.. الفضيحة.. مستقبلك.. ماضيك.. ماذا يقال لك وعنك.. اسمعها مني هذه المرة..

هذا ما يقوله ضمير الكاتب للكاتب.. ولكن ما يقوله الكاتب للناس يجب أن يكون أعلى وأعنف وأن يعيدَ ويزيد.. حتى يضيق الناس به. والناس يضيقون بصوت الضمير.. بل إن الشعوب كالأطفال.. والأطفال لا يحبون المدرس والطبيب.. ولا يحبون من يقوم بهذا الدور..

وفي بيتك تجد أطفالك الصغار يحبونك أكثر من أمِّهم.. لأنها تقوم بدور الطبيب والمدرس ليلاً ونهارًا..

أما أنت الأب فلطيف ظريف.. تضحك وتداعب وتحتضن وتقبل وتسمع شكاوى الأطفال من أمهم، وأنت الذي تشتري اللعب وتذهب بهم إلى الملاهي..

والأم هي العصا والحقنة وأنت الشيكولاتة والقبلات..

والناس يسألون الكاتب: وما الفائدة.. وما النتيجة؟!

الفائدة هي أن تعرف ما هو حق وعدل وخير.. هذا واجب الكاتب.. فقط أن يفتح عينيك ويضيء لك الطريق صادقًا مخلصًا.. ومن الضوء التام والإنارة تكون الاستنارة والتنوير فترى أوضح.. ليكون لك رأي أوضح ونظرية أكمل وهدف عام.. ولا يملك الكاتب إلا أن يقول، والفنان إلا أن يرسم، والممثل إلا أن يعبر..

ونحن جميعًا نتعاون على نشر الوعي والعدل وحب العدل والبحث عنه والتمسك به.. ولكن صاحب القلم ليس هو حامل المدفع، ولا حارس البنك المركزي، ولا هو وزير السياحة، ولا هو وزير التربية والتعليم.. فلا الكاتب عضو في هذه الوزارة ولا هو رئيسها ولا هو رئيس مجلس الشعب.. ولكنه يتوجه إلى مجلس الشعب والشورى وكل المجالس وكل اتحادات الطلاب وكل تجمعات الشباب..

وما دام الكاتب مخلصًا في قوله فهو على يقين من أن الذي يقوله لا يذهب شعاعًا كما يقول الشاعر القديم.. وإنما لكلامه مقرٌّ ومستقرٌّ.. هو عقلك وعزيمتك.. والأمانة في عنقك من أجل مستقبل الأجيال!

أنا مواطن في دولة الأرق!

منذ أيام نمت هادئًا حتى الصباح، فأدهشني ذلك تمامًا وجلست أمسك ورقة وقلمًا أسجل كل ما فعلته وشربته وأكلته وقابلته من الناس، وحضرته من الاجتماعات، لعلي أعرف الأسباب التي أدت بي إلى أن أنام ست ساعات متواصلة.. فإذا عرفت: حاولت أن أكرر ذلك كل يوم.. ولم أجد في كل ما فعلته شيئًا غير عادي..

أولاً: آكل المسلوق وأشرب الشاي بلا سكر ولا أدخن.. وثانيًا: الذين قابلتهم هم الذين أراهم كل يوم.. وثالثًا: قلَّبت في بعض الكتب التي وصلت أخيرًا، وتوقفت عند بعض الصفحات ووضعت بعض العلامات بالقلم الرصاص.. ورابعًا: أما المضايقات فعادية جدًّا سوف تحدث كل يوم.. وخامسًا: كتبت مقدمة طويلة لكتاب ظل في المطبعة ستة شهور.. الكتاب كله مطبوع تنقصه هذه المقدمة.. ثم هناك ثلاثة كتب أخرى مطبوعة تنقصها المقدمات.. ولا أعرف متى أكتبها!!

لا شيء غير عادي، ورجعت إلى كتاب الزعيم العمالي هارولد ويلسون، وإلى الصفحة التي قال فيها: إن أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها رئيس الوزراء لكي يكون ناجحًا هي: أن يعرف كيف ينام، وأن يقرأ التاريخ. ومعنى ذلك أن أهم عنصرين لنجاح أي إنسان هو

أن يعرف كيف يستريح بعمق، وأن يعرف تاريخ فنه أو تاريخ المهنة التي يمارسها.. تاريخ الأدب أو تاريخ الحكم أو السياسة أو الإدارة.. أي يجب أن يعرف ما الذي فعله الذين سبقوه.. كيف نجحوا أو كيف لم ينجحوا.. وكيف وقفوا ووقعوا؟! لعله يستفيد من تجاربهم..

أما النوم العميق فمعناه: أن يعرف الإنسان كيف يتعب بشدة ليستريح بعمق.. أو كيف يستغرق في العمل، لكي تستغرقه الراحة من العمل..

ولا يزال النوم هو مملكة المعذبين في هذه الدنيا.. ولكن عيوب هذه المملكة أنها بلا حدود.. وأن تأشيرة الدخول إليها ليست لها شروط واضحة فيدخلها من لا يعمل شيئًا.. ولا يدخلها من يعمل أي شيء وكل شيء، ويدخلها المريض ويدخلها الصغير.. ويحرم منها الكبير.. ويدخلها الظالم ويطرد منها المظلوم.

إذن ما هو المطبّ الذي وقعت فيه أنا! أين هو التقصير في هذه الحكمة التي أعلنها الزعيم البريطاني!

اكتشفت أني مشغول جدًا بتاريخ الذين عرفوا النوم العميق عن تاريخ صناعة الكتابة والأدب والفن والفلسفة.. ووجدت أن أكثر النائمين بعمق، فيما عدا بعض القادة القلائل في العالم، هم كل المتخلفين عن الحضارة وكل الحيوانات!

أنت فرعوني .. أنت تعرف أكثر !

لا يعرف الكثير عن الإنسان من لا يقرأ كتب التاريخ.. فهذه الكتب تسجل صدق الإنسان وكذبه وأحلامه وأوهامه ومخاوفه وتعصبه لوطنه وكراهيته لغيره من المواطنين أو من الشعوب الأخرى..

لابد أن نقرأ تاريخنا القديم جدًّا والحديث جدًّا.. ومهما طال الزمن بين القديم والجديد فهناك جسور كثيرة من الخيال والإيمان وحب الحياة وحب البقاء بعد الحياة.

والتاريخ الحديث يدفعنا إلى قراءة تاريخنا القديم جدًّا جدًّا.. تاريخ مصر الفرعونية.. فالفراعنة ليسوا بعيدين عن عصرنا.. فقد عرفوا أشياء كثيرة من ألوف السنين لم نعرفها إلا أخيرًا.. بل إنهم عرفوا ما لم نعرف حتى الآن..

إن كل طفل يعرف ما هي المسافة بين الأرض والشمس.. وقد عرف الفراعنة ذلك.. وهذا عجيب فنحن لا نعرف كيف عرفوا.. وكل طفل يعرف الآن قطر الأرض، وقد عرف الفراعنة ذلك.. ولكنهم أخفوا عنًّا كيف عرفوا!!

وعلماء الغرب يؤكدون أن الفراعنة قد جاءوا من قارة أخرى.. أو سلالة كائنات في كواكب أخرى.. ولكن كيف جاءوا وأقاموا ومن أين جاءوا بكل هذه النظريات الرائعة في كل العلوم..

إن العالم الأمريكي ألفاريز الذي جاء يفتش في قلب هرم خفرع عن سر الهرم والملك والحياة بعد الموت ووضع تحت الهرم عقلاً إلكترونيًّا يسترق السمع، قد اهتدى إلى أن الفراعنة أخفوا أسرارًا فوق مستوى العلم والعلماء، وأن معرفة أسرار هرم خفرع أعظم وأخطر من الوصول إلى القمر؟!

إن تاريخنا القديم ليس قديمًا.. وإن تاريخنا الحديث ليس حديثًا..

إن الفراعنة لا يزالون صانعي أخبار المستقبل في الطب والفلك والفضاء!

أنا مهموم .. إذن أنا موجود!

عشرات الألوف من المواطنين يعملون أشق وأقسى مهنة في العالم: التدريس. وقد جربت عندما كنت أحاضر في الفلسفة وفي تاريخ الحضارة بكلية الآداب. لا أقول إنني كنت أشكو من هذه المهنة.. فقد كانت المحاضرات قليلة.. ولم يكن عدد الطلبة كثيرًا، وكنت هاويًا أعلم أنني سوف أترك هذه المهنة بعد قليل.. فلم تكن مهنتي الوحيدة.

بل إنني كنت أوزع ساعاتي بين الدراسة والصحافة. كنت أضع قدمًا هنا وقدمًا هناك وعينًا هنا والأخرى هناك.

لكني كنت أضع المهنتين في قلبي وجع قلب؟! وعندما تركت التدريس في الجامعة كنت أحس أنني أترك العمل في كلية لأتفرغ للتدريس في جامعة الصحافة أي التي تضم مئات من الألوف من القرَّاء.

وكل مدرس في مدرسته وفي كليته مهان.. وهوانُ المدرسين هو الإرهاق المستمر، والتعب الذي لا ينتهي بالخروج من المدرسة أو من الكلية.. فالمدرس يستأنف عمله في البيت في القراءة والتصحيح، وعليه بعد ذلك أن يكون زوجًا وأبًا أو ابنًا بارًّا بوالديه. أو يكون مواطنًا عاديًا من حقه أن يأكل ويشرب ويلبس، ويستريح من التعب

ليصبح قادرًا على استئناف العمل. وكما يحمل المدرس كراريس الطلبة إلى البيت يحمل هموم البيت إلى المدرسة، ويظل طول عمره يحمل همومًا من هنا ومن هناك.. ويظل طيلة عمره يمتص الحبر والطباشير.. ويمتصه الحبر والطباشير، وأمامه الطلبة الصغار لا يدرون أي عذاب يعانيه، وأي مصير ينتظره، أي عمل جليل يقوم به من أجل مستقبل هذه الأجيال!

ولا يوجد مدرس لا يتمنى أن يكون ظريفًا لطيفًا محبوبًا يضحك طيلة النهار. ولكنه لا يستطيع. لا يستطيع أن يضحك وهو يشرح نظرية علمية. لا يستطيع أن ينكت على قوانين الأجسام الطافية ولا على حساب المثلثات.. لا يستطيع أي مدرس أن يسكت على الإهمال والكذب والغش. لا يستطيع مدرس أن ينسى أنه أب وأنه مشرع.. وأنه حامي الفضيلة والنظام.. ولا يستطيع أن يمنع نفسه من الثورة ضد الاستخفاف به وبقداسة العلم وبخطورة رسالته.. ولذلك كان المدرس قاسيًا، وكانت القسوة مكروهة من الطالب الذي يرى في المدرس صورة أبيه ويرى في أبيه صدًى للمدرس.. ويرى المدرس امتدادًا للبيت ويرى البيت انكماشًا للمدرسة.

ولا يستطيع المدرس أن يحقق كل شيء، وإن كان يتمنى. ونحن من ورائه نتمنى.. ولذلك يجب أن يعاونه الأب والصحف والإذاعة والتليفزيون في تربية الجيل الجديد.. وأن يشاركوا المدرس في التوجيه والتخويف والضبط والربط. لقد ارتضى المدرس ـ مئات الألوف ـ أن يقوم بدور الإنسان المخيف الكريه، وهي تضحية كبرى من أجل العلم والأخلاق والوطن!

حياتنا : شظايا وبقايا

أحيانًا أشعر أنني قلب كبير.. وأن هذا القلب يتسع لكل الناس.. الذي يساوي والذي لا يساوي.. وعندما يمتلئ قلبي بالناس أنزعه من صدري وأخطف رجلي إلى داخل قلبي فلا أجد لي مكانًا بين الناس. لقد ضاق قلبي مني.

وأضيع ولا أجد نفسي ولا أجد قلبي.. وإنما أجد ورشة للسيارات من كل نوع.. وأجد من ضمن أهداف هذه السيارات تحطم هذا القلب ونقل أنقاضه إلى أي مكان آخر..

والمصيبة أن قلبي إذا امتلأ أوجعني.. وإذا لم يكن هناك قلب، لم أكن هناك.. ولا حياة، ومن الصعب أن يكون القلب كالفندق.. يدخله الناس من باب ويخرجون من باب آخر.. ويصبح الناس «ترانزيت» ليلة أو ليلتين، ويختفون ويظهر غيرهم.. إن كونراد هيلتون صاحب الفنادق لم يفلح أن يكون كذلك.. لقد ضاق قلبه بعشرة من إخوته.. فلما ظهر عشرة آخرون ومئات الموظفين تحطم قلبه.. ولما حاول إصلاحه وفتحه على الآخر لكل الناس نصحه الأطباء بإقفال الباب والشباك والشيش والعينين.. أي يجب أن يبدو ميتًا بعض الوقت ليعيش بعد ذلك!

وأحيانًا أحس كأنني كالمعدة.. أهضم الزلط.. وبسرعة يتحول الزلط إلى عجين، والعجين إلى سائل منعش.. وأبحث عن زلط آخر.. وكنت أرى أن الشباب هو المعدة القوية التي لا تقول: لا.. للناس وللطعام وللشراب..

وأحيانًا أحس أن معدتي محترقة.. فهي لا تريد إلا المسلوق.. وترفض الساخن والبارد.. والسكر والشطة.. والملح والقهوة.. وعندما تصبح المعدة هكذا موجوعة مقروحة.. تصبح الحياة كلها كالمعدة ترفض الصداقة وترفض الحماسة وترفض البلادة.. لا تطيق النوم ولا تقدر على اليقظة..

وأحيانًا أحس أنني قلبت جلدي.. قلبت رأسي.. قلبت بشرتي وأنني في داخلي.. جوه.. جوه.. جواي.. وأن الدنيا ابتعدت عني.. وأنني مثل جنين أعادوه إلى بطن أمه.. له جسم جنين وله عقل رجل نادم، على ماذا؟ على أشياء كثيرة لا أول لها ولا آخر..

أشياء لا يكفي حصرها في تسعة أشهر الحمل وتسع سنوات الحضانة..

وأحيانًا أحس أن دقات قلبي هي دقات ساعة في داخل قنبلة زمنية وأنه لن يمضي وقت طويل حتى أصبح شظايا.. شظايا.. بقايا.. واللَّه أرحم!

الخط واحد والحظ مختلف !

صحيح، ما وجه الشبه بيني وبين نابليون؟!

سؤال غريب فاجأني به مذيع «صوت العرب» ولم يتسع وقتي لأي تفكير.. فقلت بسرعة: وجود النون والياء في اسمه واسمي! فقط.. انتهى كل ما بيننا..

ولكن أعتقد أن هناك شبهًا أكثر بيني وبينه.. وبين كل الناس أيضًا، فكل الناس متشابهون.. من يجلس على العرش.. والنجار الذي صنع العرش.. والشيَّال الذي حمل العرش.. والذين يتربصون بالعرش، والجالسون عليه.. فكل الناس بشر.. وكل البشر كائنات حية. وكلها تتكون أجسادها من العناصر الموجودة في الزهور والطيور والصخور أيضًا!

ووجدت شبهًا آخر أن نابليون مولود يوم 16 أغسطس.. والفلكيون يؤكدون أنه مولود يوم 17 .. وأنا مولود يوم 18 أغسطس والفلكيون يؤكدون أنه يوم 17 أغسطس..

ولم تسعفني ذاكرتي وأنا أمام الميكروفون أن أجد شبهًا جديدًا وهو أن أهلي فكَّروا أن يجعلوني من رجال الدين.. ففي أسرتي كثير

من رجال الدين.. وقد اعتاد الناس ـ واعتدت أيضًا ـ أن أنحني وأقبل أيديهم.. وأنتظر دعوات الامتنان والتمنيات الطيبة: الله يفتح عليك!

وفسرت هذه الدعوة في ذلك الوقت على أن فتح الله هو أن أدخل الأزهر. وأكون صاحب رواق أجلس فيه.. ويلتف الناس حولي.. وقد حاول نابليون أن يدخل الأزهر.. ودخله برجاله وخيوله، وارتدى الجبة والقفطان، واستمع إلى القرآن الذي لا يفهمه.. وهزَّ رأسه كاذبًا مع التواشيح الدينية في إحدى ليالي نصف شعبان المبارك.. وليس هذا هو الشبه طبعًا. ولكن الشبه أنه في حالة يأس شديد قرَّر أن يكون من رجال الدين.. فلما بلغ قمة السلم الفرنسي ظهرت حقيقته فأعلن عداءه للكنيسة والبابوية!!

وعندما كنت في متحف هافانا، عاصمة كوبا، رأيت خصلة من شعر نابليون. واسترحت. وعرفت فيما بعد أن هذه الراحة سببها أن شعر نابليون لم يكن كالحرير يهفهف ويطير، وإنما هو شعر أكرت.. مثل شعري!!

أما رداءة الخط فهي الشبه الأكيد بيننا.. لولا أنه ليس مهمًا أن يكون نابليون رديء الخط فعنده أساليب أخرى للتعبير عن رغباته وتنفيذها، أما أنا فلا أملك إلا هذا الكلام!

عاشق لكل العصور : ابن حزم

دليل الأسى نـار على القلب تلفح..

ودمـع عـلـى الخدين يـهمي ويسفح

إذا كتم المشغوف سر ضلوعـه..

فـإن دمـوع الـعين تـبـدي وتـفضح

إذا ما جفون العين سالت شئونها..

فـفي الـقـلـب داء لـلـغـرام مـبرح

هذه أبيات ابن حزم الأندلسي الذي عاش في القرن العاشر، ولكن أبياته هذه وغيرها عاشت عشرة قرون أخرى، بل إن المستشرق الألماني بولك ينشر إحصائية تبين أن اسم ابن حزم قد تردد في أكثر من ستة آلاف كتاب كلها تتحدث عن الحب والغرام. ومن الغريب أن ابن حزم هذا من رجال الدين ومن العلماء.. ولكن لم يكد يكتشف المستشرق بتروف سنة 1924 كتابًا نادرًا لابن حزم اسمه «طوق الحمامة» حتى تحول ابن حزم إلى إمام للعشاق والمحبين في العصور الوسطى في أوروبا والعصر الحديث.. ففي هذا الكتاب قد تحدث عن

أسرار الحب والود والغرام والعشق.. وأنواع النساء والهجر والصدّ.. وفن الرسائل.. وملامح المرأة وملاحتها أيضًا.. وأحبِّهن إليه.. وابن حزم يستنكر نظرية الحب من أول نظرة.. وفي ذلك يقول: «وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة.. ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربًا من الشهوة.. وما لصق بأحشائي حب إلا مع الزمن الطويل.. وبعد ملازمة الشخص له دهرًا، وأخذي معه في كل جد وهزل».. ولكن كيف يكون هذا حال رجل كان إمامًا للدين ثم إمامًا للدنيا أيضًا؟!

إن ابن حزم الأندلسي قد وضع أصبعه على مشكلة العصر كله.. عصره وعصرنا أيضًا.. فقد كانت المرأة هي التي تعلم الأطفال.. تعلمهم القرآن والحديث والشعر والخط. ومن الطبيعي أن يبدي الطفل اهتمامه بالمرأة في سن مبكرة، فإذا أصبح شابًّا رأى اهتمام الكبار بالشعر والغزل والمغامرات.. ورأى عددًا كبيرًا من النساء في بيته وفي بيت غيره من الكبراء والأثرياء.. وكان ابن حزم واحدًا منهم.. وهي نفس قضية العصر.. فكل الصحف والمجلات والمسارح تعرض قصص الجنس وأغاني الجنس ورقص الجنس.. فكل شيء يشعل النار في أجسام الأطفال والشبان.. ويندهش الكثير من الآباء والمصلحين والمربين لهذه الفورة الجنسية عند الجميع.. مع أن الذي يبعث على الدهشة ألا يكون شيء من ذلك! وابن حزم لا يترك جيله وهذه الأجيال دون نصيحة، فيقول: إن العلم يضيء ولا يحرق.. ولكن الجهل يقتل ويحرق.. فلا خوف من العلم أو معه!

وهذه العبارة صادقة وحسنة النية.. وهي وحدها التي تؤكد أن ابن حزم فعلاً كان يعيش في القرن العاشر، ولا يعرف ماذا أصاب الناس في القرن الواحد والعشرين. وكيف اختلطت في عقولهم وقلوبهم ومعداتهم وأحلامهم كل المعاني: فهم يتحدثون عن الكراهية بمنتهى الحب، وعن الموت بمنتهى الحيوية!

الذين قالوا للدنيا: لا بأس!

لا تخف من شيء أو من أحد.. فلا شيء يقتل الأحياء مرتين إلا الخوف.. فالذي يأكل ويموت في جلده من نتائج الطعام.. لا يأكل حقيقة، وإنما يضع في بطنه السم ثم يشكو من المغص.

ثم قل ما في نفسك ولا تخف؛ فلا أحد يسيء الظن بك.

والذي يقول ما لا يعني، كذاب جبان تمامًا كالذي يبتلع السمَّ ويتوجع بعد ذلك.. وينسى أنه هو الذي اختار السم طعامًا والخوف شرابًا..

وإذا قررت أن تعيش فكن شجاعًا. وإذا قررت أن تختصر هذه الحياة وتنتحر، ويكون انتحارك نوعًا من الاحتجاج على تفاهة الحياة، فأنت حرٌّ؛ ولذلك لا داعي لأن تشكو من الحياة؛ لأن الذي يشكو هو الذي يريدها أن تكون أفضل.. أي الذي يريد الحياة ويريد أن يبقى حيًّا.. ولكن الذي قرر أن يمضي في هذه الحياة حتى النهاية هو الذي يجب أن تكون عنده الشجاعة في أن يقبلها ويعمل على تحسينها، أي يحسن حياته هو وأن يشترك مع الآخرين في جعل الحياة أحسن للجميع.

ومن مظاهر الاحتجاج على هذه الحياة، ألا يكون لك فيها ولد ولا بنت.. أي أنك تكتفي بنصيبك أو مصيبتك من هذه الحياة.

فأنت إذن تمشي في هذه الحياة على رجل واحدة.. فأنت تقبلها إلى حد ما.. وترفضها إلى حد ما.. وأنت راض عنها بعض الرضا.. ثم إنك لست أنانيًّا وإلا كنت أتيت إليها بأولاد يضيقون بها، مثلما أنت ضائق بها، ولكنك آثرت أن تنفرد أنت بالعذاب والشقاء.. وأن توفر ذلك على أولادك.. فلا بأس أن يفعل الإنسان ذلك..

فالذين كفروا بالحياة هم الذين قالوا لها: لا. والذين أقبلوا عليها بأولادهم هم الذين قالوا عنها: نعم..

أما الذين ليس لهم فيها ولد أو أب أو أم أو أخ أو أخت.. وهم أسعد الناس حقًّا، فهم الذين قالوا للحياة: ربما.. لعل.. يجوز أنت خير ويجوز أنت شر!!

ويبكي كثيرًا من يملك كثيرًا.. ولا يبكي مطلقًا من لا يملك في الدنيا شيئًا...

أما الذين تحار الدموع في عيونهم فهم الذين يملكون القليل.. إنهم الذين قالوا لكل شيء: لا بأس!

قرارات من حمام السباحة !

إذا أنت أمسكت سكينًا وأتيت ببصلة وقطعتها إلى قطعتين أو أربع ثم وضعت أنفك فيها. وظهرت على وجهك السعادة، فأنت مصري فرعوني. فقد كان أجدادنا يفعلون ذلك إذا شعر الواحد منهم بدوخة أو كان عنده صداع. وما زلنا نفعل ذلك في الريف.. وهذه هي بداية العلاج بالعطور في التاريخ.

إن كيميائيًا فرنسيًّا اسمه جانفوس قدم لأوروبا العلاج بالزيوت العطرية وذلك بشمها واستخدامها في التدليك.. وكان ذلك سنة 1930. ومن يومها أصبحت فرنسا هي المنتجة الأولى للعطور في العالم..

وهناك أكثر من 300 مستخلص للعطور في فرنسا تدر على فرنسا مئات المليارات من الدولارات سنويًا. ولا تنافسها إلا صناعة أدوات التجميل..

والتاريخ يحدثنا عن الذي كانت تمارسه بلقيس ملكة سبأ وكليوبطرة ملكة مصر وكذلك (شجرة الدر) التي حكمت مصر ثمانين يومًا عندما كان زوجها مريضًا وعندما مات أيضًا!! أما بلقيس فكانت تستخدم ألبان الإبل والأتان وتضعها دافئة في حوض

وتخلطها بالعطور والبهارات من آسيا. وتتمدد وتتقلب ساعات وتخرج من الماء وقد تغطي جسدها بطبقة زيتية ناعمة.. أما كليوبطرة فكان حمامها اليومي حفلة موسيقية غنائية، فهي تختار الماء الدافئ مخلوطًا باللبن وبكثير من الأعشاب والزيوت العطرية.. وتقوم الفتيات الصغيرات بتدليكها، بينما الموسيقى تعزف والمطربات يغنين لها ويتمنين لها العافية ولمصر السلام ولجيوشها النصر برًّا وبحرًا. وأحيانًا كانت كليوبطرة تصدر القرارات الهامة من وراء ستار ـ أي عندما تكون أعصابها هادئة. ويا ليت الزعماء يفعلون مثلها فيدخل الرئيس الأمريكي في البانيو ويستحمّ على مهله. وبمنتهى الهدوء والسعادة يقول: اسحبوا قواتنا من الشرق الأوسط.. ويا إسرائيل خدي فلسطين بالحضن. وكفى! ويا دار ما دخلك شر.. ويعم السلام عالمنا.. والسبب هو الماء الدافئ والحمام الساخن والعطور..

وهكذا يدار الكون من الأندية الرياضية ومن الحمام التركي والجاكوزي. ويصدر قرار من الأمم المتحدة بمنع المنبهات: الشاي والقهوة، ثم توزيع الأبصال على كل الناس؛ فينام من ينام ويموت من يموت.. أما الذي استغل الموت في الحمام فهي شجرة الدر، عندما علمت أن زوجها سوف يتزوج غيرها أطلقت عليه الخدم فضربوه بالقباقيب حتى الموت!

فما رأيك؟!

والجواب : لا شيء طبعًا !

كتاب اسمه «ما الذي خرجت به؟» أعجبني العنوان.. وأكملت هذا العنوان في رأسي على هذا النحو: ما الذي خرجت به من الدنيا؟!

ربما كان هذا السؤال مبكرًا بعض الوقت على أساس أنه لا يزال أمامي بعض الوقت حتى أوجه هذا السؤال لنفسي لأعرف كم من الوقت.. فالأعمار بيد الله.. ولكني تساءلت: صحيح ما الذي يمكن أن يخرج به الإنسان من هذه الدنيا؟!

والجواب: لا شيء طبعًا.. لأنك إذا قلت إنك «خرجت» من هذه الدنيا بشيء.. فأنت لا تعرف ماذا تقول.. لأنه لا أحد يخرج منها بشيء.. فالذي يموت لا يترك شيئًا لأحد.. لأنه بعد وفاة الإنسان فكل الناس بعده لا شيء أيضًا.. وإنما الذي يحدث هو الإنسان كما «دخل» الدنيا سوف «يخرج» منها.. كان وزنه ستة أرطال وسوف يخرج منها ووزنه ستون رطلاً.. دخلها سليمًا وخرج منها مريضًا. أو تقول لنفسك: كل هذا التعب والعذاب في الدنيا والنتيجة ماذا؟ لا شيء..

فأنت قاتلت وحاربت وصارعت وناقشت ومرضت وسهرت وأكلت وشربت وكسبت وخسرت وكفرت وآمنت ودقّ قلبك طالعًا نازلاً ثم

ضاق صدرك والتوت أمعاؤك واحترقت معدتك وزاغت عينك وانشطر رأسك وحارت قدماك في كل أرض.. وامتدّت يدك إلى كل الكتب والعقاقير.. والنتيجة ماذا؟ لا شيء.. فما الذي يمكن أن يخرج به الإنسان من دنياه! وقد تقول إن الإنسان لا يصح أن يأخذ من هذه الحياة شيئًا.. لأن الحياة لا شيء.. إن الحياة كوبري نعبر عليه إلى الناحية الأخرى.. والطريق طويل.. ولذلك يجب أن يكون الإنسان خفيفًا حتى يكون عبوره سهلاً. وكل الذي قدمناه وعملناه في هذه الناحية سوف نحاسب عليه في الناحية الأخرى.. إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ.. وهذه الناحية عابرة والناحية الأخرى أبدية.. وكل شيء هنا من أجل هناك.. وليس الجسم إلا ثوبًا نتسلمه جديدًا.. ونتركه باليًا قديمًا.. والموت هو أن يسقط هذا الثوب عنا.. ثم عدت أقلب في هذا الكتاب من حين إلى حين.. الذي ألفته طبيبة بريطانية.. والكتاب عن علاج الأمراض النفسية والأطباء.. وليست للكتاب علاقة بكل ما دار في رأسي قبل أن أحرك عيني بين صفحاته ولكن بعد قراءته في خمس ساعات وجدتها تقول : إن المرضى ليسوا وحدهم الذين نضعهم في المستشفيات؛ إنهم الأطباء أيضًا. فعالجوا أنفسكم أيها الأطباء حتى لا تكونوا وبالاً على المرضى.

فالدنيا ـ إذن ـ مستشفى دخلنا فيه مرضى.. وأما العلاج ففي الناحية الأخرى!

لا أقوى من راحة الإيمان !

أنت لا تعرف حال الناس على الأرض إلا إذا عرفت ماذا يقولون عندما يرفعون وجوههم إلى السماء.. فإن كانوا يعبدون الشمس، فهم أيضًا يعبدون البقر.. وإذا عبدوا البقر عبدوا صاحب البقر ومن يعطيهم ثمنها.. عبدوا الكهنة؛ فهم - إذن - وثنيون.. وإذا نظروا إلى السماء قالوا: إنها ما لا نهاية له من الحجارة والغازات تدور حول نفسها من ألوف ملايين السنين وبعيدة عنا ألوف ملايين السنين الضوئية..

فأرضنا هذه ليست إلا نقطة على حرف في كتاب من مليون جزء، أي أننا تافهون جدًّا، ولكنه الغرور الذي ينفخ فينا ويجعلنا نطق من العنطزة.. ولكن على الرغم من أن الأرض هكذا صغيرة، ونحن أصغر من فيها من الكائنات، لأننا أضعف من الميكروبات، فنحن وحدنا الذين نعرف حدود عقلنا ومعنى وجودنا وماضينا ومستقبلنا أيضًا..

فنحن بالجسم أضعف من الفأر، وبالعقل أنصاف عمالقة..

إذا نظرت إلى السماء وقلت في نفسك ولنفسك: لا أعرف حدود هذا الذي أرى.. ولكن أعرف حدودي.. وأعرف معنى وجودي أنا، أما وجود

الكون، فلا أعرفه..إذن يجب أن أبقى داخل حدودي ولا أخرج منها إلا بحساب.. فأنا يجب أن أعيش وأن أمضي في دفع عجلة التاريخ إلى الأمام.. ولو مليمترًا واحدًا.. فهذا دوري وهذه قدرتي وقدري أيضًا.

ونحن لا نختلف كثيرًا عن الصرصور والحمار والعصفور.. وكلها تموت ولا تعرف من هي.. أما نحن فنعرف من نحن.. ولكن معرفتنا هذه لا تفيدنا كثيرًا لأنها قليلة وكليلة.. وإنما نحن نحاول أن تكون أيدينا أطول وعيوننا أبعد وآذاننا أعمق..

وهذه هي التكنولوجيا الحديثة: أي علوم تطوير الأدوات التي يستخدمها الإنسان لكي يبقى.. أي علوم الأطراف الصناعية.. فالصواريخ بدلاً من الساقين.. والعدسات بدلاً من العينين، والليزر بدلاً من الأذنين.. والإلكترونات بدلاً من المخّ..

أما إذا نظرت إلى السماء وقلبك مفتوح وذراعاك وقلت: ساعدني على ضعفي وعلى غروري.. اجعل نهايتي أفضل من بدايتي.. وعمري القصير أبديًا في جنتك يا أرحم الراحمين.. إذا فعلت هذا، فأنت أسعد الناس؛ لأنه لا شيء يهدئ القلب وينعش العقل ويريح الضمير، مثل هذا الإيمان!

مأساة حرف (الواو)!

انتقدني أحد القرَّاء، ومعه حق. فقد كتبت مثلاً شعبيًّا يقول: باب النجار مخلع، بتشديد اللام. ولكن ظهر هكذا: باب النجار مخلوع. ولا أعرف كيف أن المقال في رحلته من القاهرة إلى لندن قد أضيفت له (الواو).. والمعنى يختلف. فإذا قلت: إن باب النجار مخلع، يعني كان يمكن إصلاحه بسهولة. ولكن النجار مشغول بأبواب الآخرين.. كما ينشغل الطبيب بمتاعب الناس وينسى نفسه وأولاده..

أما إذا قلت: باب النجار مخلوع، فالنجار أراح دماغه وخلع الباب. وإن كان من المستحيل أن يخلع باب البيت. وبذلك تستبيح القطط والكلاب واللصوص بيته. ولكن المعقول أن يكون هناك باب يحتاج إلى ضبط وربط!

وأول كتاب صدر لي كان عنوانه: وحدي (و) مع الآخرين، ولم يكن هذا هو العنوان الذي اخترته. فقد كان العنوان: وحدي مع الآخرين.. والمعنيان مختلفان تمامًا؛ فإذا قلت وحدي (و) مع الآخرين.. أي مرة عندما أكون وحدي ومرة عندما أكون مع الآخرين. ولكن إذا قلت: وحدي مع الآخرين فمعناه أنني وحدي رغم وجود الآخرين؛ فأنا وحدي لا أدري بأحد أو لا أريد.. فأنا منعزل معتزل منطوٍ على نفسي ولا يهمني أن يكون هناك ألوف غيري. ولكن الناشر ظن أنني قد نسيت الواو!

ولي كتاب آخر عن أمراض الزعماء وعنوانه «وكانت الصحة هي الثمن!» فإذا بالناشر يحذف الواو.. والمعنى يختلف. والمعنى أن كلامًا طويلاً دار بيننا وانتهيت إلى هذه النتيجة: أن الصحة هي الثمن الذي دفعه العظماء. أما إذا حذفنا (الواو) فهي جملة قاطعة أو حكمة مطلقة!

والفيلسوف الوجودي مارتن بوبر يقول إن هناك صلة بين الناس أو بين الأشياء وعلاقات ووشائج. يعني إيه؟ يعني أن الكوب على المائدة معناه أن هناك (صلة) بين الكوب والمائدة، صلة مكانية. ولكن إذا أمسكت الكوب في يدي وأدنيته من فمي فهذه علاقة بيني وبين الكوب.. أما إذا جاء صديق فهذه وشيجة. فالذي بيننا علاقة حميمة..

أو هناك ما نسميه: أنا وأنت.. وأنا وهو.. وأنا وأنا ـ أنت... إلخ.

فالعلاقة بين أنا (و) هو.. هي التي بيني وبين أي إنسان. وأنا وأنت هي علاقة الصداقة.. وهناك علاقة الحب. وهي أنا ـ أنت وهي مختلفة تمامًا عن أنا (و) أنت!

فإذا كان الكوب الذي أمامي قد شرب منه المحبوب فالعلاقة بيني وبين الكوب اسمها: أنا وأنت.. أو الأنا أنت.

فحرف الواو يجعل فارقًا ومسافة أطول كثيرًا مما تراه على الورق.. بل إن علم النفس وكل الشعر والحب والفن والجمال كلها تحاول تفسير المسافة الصغيرة جدًّا التي بين أنا (و) أنت.. أو أنا ـ أنت!

والشاعر القديم قال:

كواو ألصقت ظلمًا بعمرو

وبالمثل الشعبي المصري أيضًا!

لا بد من سبب للحب والكراهية!

كنا اثنين جلسنا نتحدث في موضوعات غير مترابطة.. وإنما كنا نحن الاثنين مثل دبوسين أو مشبكين يربطان خيوطًا ويصنعان لها العقد، حتى يكون الحديث نسيجًا واحدًا.. وتبادلنا المقاعد.. واخترت واحدًا مريحًا وتمددت.. وكان المقعد طويلاً حانيًا كأنه حضن أمّ.. وكأنني طفل صغير.. أو طفل صغير فعلاً فقد كان كلامي صغيرًا، وكنت أستخرجه من أعماق طفولتي، ولم أجد سببًا واضحًا لهذا الحديث أو هذا الاختيار.

ولما قدم لي الطعام، أبعدتُ من أمامي ذلك النوع من «الجبن» الملفوف في ورق مفضض على شكل مثلثات أو مربعات.. ولاحظت أنني أرفضه بأنفي.. أي كأنني شممت رائحته.. ثم كرهت الرائحة.

فاندفعت أصابعي تطرد هذه الرائحة، كل ذلك بدون تفكير..

وسألني صديقي: لماذا؟!

قلت: لا أعرف، أنا لا أحب هذا النوع من الجبن..

ولماذا؟

هنا فقط تذكرت أن صديقي هذا هو أحد علماء النفس.. وأنه لا يقبل مني هذا الرفض دون أن يكون هناك تفسير واضح.. أو كان من الواجب أن يكون عندي أنا أيضًا مثل هذا التفسير..

وكانت فرصة لأن أفتش في أعماقي عن سر هذه الكراهية. فليس من المنطق أن أكره وأحب وأنفر وأقترب دون سبب لذلك.. فلست طفلاً.. وإن كان موقفي هذا طفوليًّا.. ووجدت سببًا. بل وجدت السبب.. ففي سنة 1950 سافرت على الباخرة الفرنسية الماريشال جوفر إلى مارسيليا، وكنا ركاب الدرجة الثالثة وهي قاع السفينة أي تحت سطح البحر بستة أمتار.. وكان قاع السفينة مثل صوف حيوان مفترس.. تكدست في أحشائه الأطعمة.. ثم أصيب هذا الحيوان بإمساك شديد لسبب ما.. وكانت لأحشاء الحيوان رائحة خانقة.. وكنا نحن ننام في الجو الخانق.. فقد تلاصقت مخداتنا وأحذيتنا وحقائبنا وطعامنا.. وأصوات النائمين والصاحين.. وكل شيء له صوت قبيح ورائحة أقبح. وكانت هذه الجبنة المحفوظة في ورق مفضض أكثر الأطعمة نفاذًا إلى الأنف.. وأكثرها بقاءً في ذاكرتي.. فأنا ككل الناس شديدي الحساسية لهم أنوف تلتقط ما ليست له ضرورة من الروائح..

هذا هو السبب لكراهيتي لها.. وفي نفس كل واحد عشرات الحوادث الصغيرة القديمة وهي التي تتحكم في الذي يحب والذي لا يحب من الناس ومن الأشياء.. وتكون هذه الكراهية وهذا الحب بلا سبب.. والحقيقة أن لها سببًا، ولكننا لا نفتش أو ليس عندنا وقت ولا رغبة في أن نضع أصابعنا على مواجعنا القديمة!

واحد في الأرض وواحد في السماء!

الإنجليز لا يملُّون الكتابة عن شاعرهم شيكسبير..

والألمان عن شاعرهم جيته..

والفرنسيون عن شاعرهم هيجو..

ونحن نمل الكتابة عن أي أحد. أو نظل نكتب عن أحد من الناس صباحًا ومساءً وإذاعة وتلفزيونًا وصحافة حتى نمل ذكر اسمه ورسمه واليوم الذي ولد فيه! واليهود لا يملون الكتابة عن هتلر وأينشتين. هتلر يلعنونه ويجرحونه وينبشون قبره وقبر أبيه وأمه.. ويهيلون التراب على الشعوب الجرمانية. وكلما فرغوا من تهمة اتجهوا إلى فضيحة أخرى؛ فهو ابن حرام، وهو مريض، وله خصية واحدة مثل الحبيب بورقيبة.. ولم يكن الأسد الذي تهابه كل وحوش الغابة، فقد كانت زوجته إيفا عشيقة لأحد الضباط.. ثم إذا فرغوا من هتلر انقلبوا على الذين حوله من قادة وساسة وفلاسفة.. ولم يحدث في السبعين عامًا الماضية أن خلت المكتبات من كتاب جديد عنه، وكذلك الأفلام التاريخية والوثائقية، أو الوعد بمفاجأة جديدة عن

قرارات الحرب والدمار.. ومن الذي ضحك عليه ومن الذي خدعه.. وأسخف ما قرأت عن هتلر علاقته بالفيلسوف الوجودي هيدجر.. فهذا الرجل العظيم قلبوا عليه الدنيا وشككوا في علمه وأستاذيته حتى إن أحدهم يؤكد أن تلميذته اليهودية حنا أرنت هي التي (ساعدته!)

وعن أيام هتلر والحماس له كتب الأستاذ العقاد مقالات من نار قال فيها: إن الذي يقول إن هتلر سوف ينتصر هو إنسان قد (نظر) إلى جيوشه التي تجتاح أوروبا.. أما الذي يقول إن هتلر سوف ينهزم فهو إنسان قد (رأى) مصير الطغيان. وكان العقاد أشجع الناس عندما (رأى) أن هتلر سوف ينهزم. والفرق كبير بين من (نظر) وبين من (رأى) أو بين من يلمس بالعين وبين من يرى بالعقل.. وأما الشخصية الفريدة الثانية فهي أينشتين الفيزيائي العظيم صاحب نظرية النسبية العامة والخاصة وصاحب أرشق المعادلات الرياضية في التاريخ وهي: الطاقة = الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، وبمقتضى هذه المعادلة عرفنا طاقة القنبلة الذرية. وكان أينشتين ضد استخدامها..

وأينشتين يهودي صهيوني عرضوا عليه أن يكون رئيسًا لإسرائيل، كما عرض عبدالناصر على لطفي السيد باشا العالم بالفلسفة أن يكون أول رئيس لمصر فاعتذر.. أما أينشتين فقال إنه يفهم المادة بصعوبة فكيف يفهم البشر ملايين البشر؛ واعتذر. ولا أحد يعرف عدد الكتب والدراسات والأبحاث والأفلام التي صدرت عن أينشتين. وكيف أنها تغاضت تمامًا عن عيوبه الأخلاقية.. من معاملته السيئة

لزوجـاته وابنه في مستشفى الأمراض العقلية.. ولا كيف أن أينشتين لا يطيق أن يستحمَّ عـامًا كما أن النـاس لا تطيق أن تشم رائحته..

فهتلر هو الشيطان الأكبر في التاريخ..

وأينشتين هو نصف الإله أو الثلاثة أرباع.. هذا في السماء وهتلر في الأرض، وما بين السماء والأرض كتب عنهما!

فوق أو تحت : الإنسان حيوان !

قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

إذا مـا نفقت ومـات الحمـــــار

أبـــــيــــنـــك فـــرق وبــين الحمـــار

أي إذا قلنا الإنسان نفق وأن الحمار قد مات.. فهل هناك فرق بينها وبين أن يقول إن الحمار قد (نفق) وإن الإنسان (مات). لا فرق فالموت واحد. والنهاية واحدة، من التراب إلى التراب.. من ظلمة الرحم إلى ظلمة القبر.. الإنسان كالحيوان. ليس في الموت وإنما في الحياة أيضًا؛ فكما أن الحيوان تتسلط عليه الغريزة فكذلك الإنسان مهما وضعنا من روابط وضوابط؛ فالإنسان حيوان.

وقديمًا قال أستاذنا سقراط: الإنسان حيوان ناطق ـ أي عاقل مفكر. فالإنسان على الأرض مثل الإنسان فوق الأرض.. في الفضاء.. في البالون. في الطائرة. في الصاروخ.. يتعب ويتعذب ويشتهي ويطمع.. فرواد الفضاء يتحدثون عن حاجتهم إلى الجنس عندما يرون الأفلام العارية.. وعندما يشربون ويرقصون فوق الأرض بمئات الكيلومترات.. وقد حدث في رأس السنة من عشرة أعوام أن تحرش رائد

فضاء روسي بزميلة. وكاد يعتدي عليها لولا أن تدخل رائد فضاء ياباني وهدده بالقتل وبذلك تكون أول جريمة في الفضاء.. وعندما عادوا إلى الأرض لم يندهش العلماء وإنما راحوا يسألونه بالضبط ماذا شعر، وعلى ارتفاع كم من الكيلومترات؟ فهذه تجربة جديدة عند العلماء يريدون أن يعرفوها. أما أنها عيب أو لا أخلاقية فليس هذا شأنهم..

والروس عندما أطلقوا أول رائدة فضاء أركبوا معها خطيبها. والتعليمات عندهما أن يكون لقاءً حميميًّا. فكانت لهما ابنة مشوهة وقد أخفى الروس هذه المأساة وقالوا بل هي طبيبة ونشروا لها صورًا من بعيد.. وأمام المحاكم الأمريكية قصة فريدة من نوعها. فرائدة الفضاء نوا أحبت رائد الفضاء أولفالين. وكان كلام وسلام ووعود. وعرفت بالصدفة أنه يحب مهندسة طيران اسمها كولين. ولم تطق صبرًا. وفكرت ودبرت وارتدت ملابس الرواد وذهبت إليها في بيتها واقتربت منها، ولما فتحت نافذة سيارتها فاجأتها الرائدة برذاذ من ماء النار لكي تصيبها بالعمى وتشوهها، وقبض عليها البوليس ووجدوا معها حبلاً ومسدسًا وزجاجة ماء النار، وفي حقيبتها خطاب لم تبعث به إلى حبيبها الخائن. وفي الخطاب تذكره بالقبلات والأحضان في سفينة الفضاء!

ولو رأيت صورة رائد الفضاء وصورة المحبوبة لعذرت الرجل لأنها أجمل وأصغر سنًّا!

.. إلا هذا الزواج !

وسط الطبل والزمر و«اتمخطري يا حلوة يا زينة» و«يا عوازل فلفلوا».. اقتربت من والد العروس وهمست في أذنه: يا أخي عاوز أقول لك كلمتين.. ضروري دلوقت.. تسمعني للآخر.

قال ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة.. لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**».. وحديث آخر يقول: «غفر الله لامرأة قدمت شرابًا لكلب عطشان».. وعمر بن الخطاب رأى رجلاً يسحب ماعزًا من ساقها لكي يذبحها.. فقال له: قدها إلى الموت قودًا جميلاً!

يعني إيه: قلت له: بصراحة أنا معترض على هذا الزواج من أوله لآخره.. يا راجل يا محترم يا متعلم جدًا كيف توافق على زواج ابنتك الصغيرة الحلوة من رجل في مثل سنك.. أعطها فرصة تبكي.. أعطها فرصة لكي تودع الدنيا قبل رحيلها.. أنت قفلت عليها الباب والشباك ومنعتها من السفر ومن الحياة المناسبة لشابة مثلها.. وبعد ذلك تلقي بها من الهاوية!! ثم نظرت ورائي فوجدت العريس العجوز.. وفي غضب قلت لوالد العروس: ألا يجعلك هذا الرجل تفكر لحظة واحدة في أن تلقي بنفسك من النافذة.. حاول وسوف أتولى فتح النافذة لك.. ثم أنقل إلى القرَّاء آخر آرائك ونصائحك إلى أولياء الأمور ألا يرتكبوا مثل هذه

الجريمة.. وأنا دهشتي لا تنتهي، كيف أن أم العروس هي الأخرى سعيدة بهذا الشكل ولا تتوقف عن تقبيل العريس والعروس.. ما هذا الذي أراه؟

منذ أجريت عملية في القلب وأنت لم يعد لك قلب.. كل هذا من أجل ماذا؟ الفلوس؟ هل أنت مدين له؟ أنت رجل غني.. فهِّمني أرجوك.. قل لي!!

قال: يا أخي أنت لم تعطني فرصة لكي أقول.. لن أطيل في الكلام.. وإنما سأكتفي بأن أقول أنا حر والعروس حرة أيضًا.. نعم هي حرة وهي التي اختارته..

اختارت هذا الرجل، تحت أي ضغط؟!

– يا أخي لم تختر هذا الرجل.. إنها اختارت ابنه.. والابن في أمريكا.. وهو الذي أصر على أن يمشي إلى جوارها في الزفة وهو سعيد.. وهي سعيدة وكلنا سعداء..

استرحت!! الآن استرحت..

– أنت نسيت أنها ابنتي الوحيدة.. فهل من المعقول أن أرتكب هذه الجريمة؟!

طبعًا ما دامت ابنتك تحب العواجيز..

– آه.. تريد أن تقول إنك أنت أولى بها من هذا الرجل.. تعال لكي نقول للعروس كيف حزنت أنت على مصيرها.. تعال.. نضحكها هي والعريس العجوز.

وتقدم أبوها يقول للعروس: أقدم لك عمك.. وقد تقدم لخطبتك وانتزاعك من براثن هذا العجوز.. مبروك عندك عريس احتياطي!

لست سعيدًا ولكن أبدو كذلك!

تعال لي أي يوم وستجدني سعيدًا جدًّا بلقائك.. مع أنني لا أعرفك، وليس هناك مبرر لسعادتي بك!

وهنا أتوقف، ما الذي يجعلني أبدو هكذا سعيدًا؟ لا سبب.. ما الذي يجعلني أرحب به مهما كنت أنا مشغولاً؟ لا سبب، ولكني أقوم بدور الرجل المهذب.. أقوم بدور الذي يخفي متاعبه ومشاغله.. وإنني أقوم بدور الرجل الذي يرى أن همومه تخصه هو، وأنها لا تخص الآخرين.. وفي نفس الوقت أقوم بالمساهمة في الصورة الجميلة الكاذبة، وهي أننا معشر الكتَّاب من طراز آخر من الناس.. نحن فوق.. بلا متاعب ولا مشاكل ولا هموم ولا قلق..

وليست هذه حقيقتي.. ولا حقيقة أي إنسان تراه أو تقابله في البيت أو في الشارع.. وإنما هي صورة أنيقة لأعماقي.. إنها صورتي.. وهذه الصورة قد أفرزت ألوانها من داخلي.. وعلقتها على كتفي، وتواريت وراءها؛ فأنت لا تراني.. وإنما أنت ترى إحدى صوري.. أجمل صوري!!

فأنا لست سعيدًا.. ولكن ظاهري السعادة.. أو متظاهر بالسعادة!

وكل إنسان كذلك.. أنت في أي وقت لست إلا صورة من صورك.. لوحة من لوحاتك.. ونحن نطلب من الناس أن يكونوا صورًا لأنفسهم.. وألا يكونوا على حقيقتهم.. لأن حقيقتهم تضايقنا ولا تهمنا!

مثلاً: الكمساري في الأتوبيس أو في القطار، نحن نطلب منه جميعًا أن يكون مبتسمًا دائمًا.. إذا أخذ ثمن التذكرة يكون رقيقًا، ولا بد أن يشكرنا على ذلك.. ولا بد أن تكون معه فكة.. ولا بد أن يعرف المحطة التي سوف أنزل عندها مع أنني لست الراكب الوحيد من أول الخط.. ولا الراكب الوحيد طول النهار ولا طول الشهر.. ونحن ننسى أن هذا الكمساري لا يختلف عن الراكب إلا في شيء واحد هو أن المواصلات ليست مشكلة بالنسبة له.. ولكنه أب وزوج.. وله هموم ومشاكل أيّ أب وأيّ زوج.. وله همومه وله متاعبه، ومن ضمن آماله في الحياة أن يتحول من كمساري إلى راكب. وأنه هو أيضًا يركب صاروخًا في خياله.. وهذا الصاروخ يحلم بأن ينقله في يوم من الأيام إلى محطة اختيارية اسمها الستر!

وأنت تقوم بدور الأب.. وتقوم بدور الصديق.. وتقوم بدور الموظف المطيع وبدور الرئيس الصبور.. ودور الطبيب الذي يملك ما يشبه المعجزات.. ونحن في الحقيقة نعرض على الناس «صورنا».. نعرض على الناس أحسن ما عندنا.. والناس يعرضون علينا صورهم ولوحاتهم التي رسموها سرًا.. فحياتنا على هذا المعرض الحي.. نحن الفنانون.

واللوحات أيضًا.. ونحن المؤلفون والممثلون والمخرجون أيضًا..

ومن المؤكد أن أي إنسان عندما يتهم إنسانًا بالكذب أو بالنفاق أو بالشر، فهو لا يتهمه وإنما هو فجأة قد رأى الصورة الحقيقية التي نخفيها وراء هذا العمل الفني الزائف!

راقصة تبحث عن معنى !

إذا زاد عدد الفرق الكوميدية الخاصة، فسوف تظهر راقصات أخريات على مسارحها. وظهور راقصات معناه أن الفرقة الخاصة محتاجة إلى أجسام جميلة «تسند» الممثلين والممثلات.. أي أنهم محتاجون إلى جسم جميل وليس إلى جسم معبر!! وإذا كانت هذه الراقصة عادة قد فقدت معناها في النوادي الليلية، فلأنها ترقص ولا تقول أي شيء.. ولذلك، فأنت عندما ترى الراقصة سوف تشعر بالإشفاق عليها.. لأنها تحاول أن ترغم جسمها على أن يقول أي معنى.. ولكن بلا معنى.. وأصبحت الراقصات لا تختلف الواحدة منهنّ عن الأخرى إلا في الأداء وإلا في إنهاء الرقصة أو اختيار قطعة موسيقية من إحدى أغاني أم كلثوم.. وهناك سباق بين الراقصات على اختيار أنسب القطع الموسيقية المعروفة والرقص بمصاحبتها أو على نسقها، ولكن الرقص الشرقي مرتجل ليس له قواعد ولا أصول؛ وهو تحريك الأرداف وهز للصدر مع تطويح الرأس إلى الوراء والجانبين.. ولا معنى هناك.

ولذلك، فالراقصة إنسان أخرس، ولأنها ترقص في النوادي الليلية، فهي تفقد معناها مرة أخرى؛ لأنها تتحرك بين أناس يرون كل شيء جميلاً ويرونها أيضًا جميلة.

ولذلك، إذا تحولت الراقصة إلى المسرح فلأنها تريد أن تجد لنفسها معنى.. ولأن الرقص قصير العمر، فهو مرتبط باللياقة الجسمية، ثم لأن إحدى الراقصات تفرغت للتمثيل؛ فكل راقصة تريد أن تمشي في الطريق.. ثم لأن الراقصة تظهر على المسارح بفلوسها، فبعض الراقصات دفعن أموالاً للمخرجين لكي يظهرن على المسرح.. وأظن أنه من حق أي إنسان أن يذهب بفلوسه إلى المسرح.. وأن يصعد بفلوسه على المسرح أيضًا!

أما السبب الحقيقي لظهور الراقصات على المسارح الكوميدية الآن، فلأن هذه المسارح قد تحولت إلى كباريهات رخيصة لا يكفي فيها خلع الملابس، وإنما خلع الحياء. أما لماذا اتجهت هذه المسارح إلى هذا الأسلوب، فلأنها تريد أن تكسب. وهي تريد أن تكسب لأن الدولة لا تساعدها، والدولة لا تستطيع أن تساعدها على الاستمرار في خلع أزياء الحياء.

ولذلك، فهناك اتفاقية صمت بين الدولة وبين هذه المسارح؛ أساسها أن الدولة لا تدفع، والمسارح يجب أن تجد من يدفع.. ووجدت جمهور الناس الذين يتفرجون وأكثرهم يستنكرون ويلعنون.

ومن علامات الخير الأخلاقي والاجتماعي أنهم يستنكرون ذلك، وأنهم سوف يتجهون إلى مسارح الضحك المحترم، أي الذي يحترم فيه الممثل نفسه وجمهوره!

الجو لطيف فهربت من الجنازة !

علماء الأرصاد الجوية في أوروبا مشغولون جدًّا ببحث قضية أخلاقية موسيقية هي: كيف كان الجو في مدينة فيينا منذ أكثر من 200 سنة، أو بالتحديد يوم 6 ديسمبر سنة 1791

ففي هذا اليوم توفي الموسيقار العظيم موتسارت عن 35 عامًا.. وهو العبقري الذي بدأ يعزف على البيانو وهو في السابعة ويؤلف لنفسه وهو في العاشرة.. وقد ظن الناس في أيامه أن عليه عفريتًا، وأن هذا العفريت هو الذي يكتب له؛ ولذلك كانوا يحبسونه في غرفة.. ثم يفتحون عليه الباب.. فيصرخ الطفل الصغير.. ولا يجدون عنده أحدًا من الناس أو من الجن..

لقد كان هذا الطفل إحدى معجزات القرن الثامن عشر في أوروبا وفي كل العصور وكل البلاد أيضًا.. هذا الشاب تقدم للزواج من فتاة.. رفضت الفتاة أن تتزوج «عيِّلًا» مجنونًا.. ولكن خطيب هذه الفتاة قد دخل التاريخ فقط؛ لأنه رسم لوحة بالقلم لهذا الموسيقار..

وتزوج فتاة أخرى.. كان يطلب إليها أن تحكي له الحكايات وهو يؤلف موسيقاه.. إنه يريد شيئًا يشغله ويعطيه مبررًا للتركيز.. وكانت

تقص عليه القصص.. وعندما تنهي قصصها كانت تعيد ما قالته.. فكان ينبهها إلى أنه سمع هذه القصة من قبل..

وتقول كتب التاريخ إن الموسيقار عندما مات في 6 ديسمبر سنة 1791 لم تمش زوجته في جنازته..

واختلف المؤرخون هل الجو كان شديد البرودة، وكانت هي مريضة؟ وقالوا إن هناك خلافًا عنيفًا بين الزوجين.. هذا الخلاف لم يحسمه الموت، ويقال إنه هو الذي طلب إليها قبل وفاته أن تحقق له آخر أمنية: ألا تمشي في جنازته.. فوعدته.. ووفت بالوعد!!

وبعد وفاة موتسارت تزوجت أرملته.. وأعلن زوجها الثاني بعد ذلك أن الذي منع زوجته من الذهاب إلى قبر موتسارت أنها كانت مريضة.

أما علماء الأرصاد فهم يؤكدون أن الجو في مدينة فيينا كان لطيفًا.. ولم تكن هناك رياح عاصفة.. وأنه كان في استطاعة الأرملة أن تسير في جنازة الزوج لو أرادت..

فهل الزوجة المشاكسة هي التي قصفت عمر هذا الموسيقار، أو أنها الموهبة الفذة التي نضجت مبكرًا وذبلت قبل الأوان؟!

الجواب: أن كلاً منهما نال عقابه:

هي: لعنة التاريخ.. وهو: لعنة العبقرية!

أعمدة من الضوضاء

أفسدتنا الحياة في المدن. ولذلك سارعت بأن أمضي يومًا في الريف. ذهبت، كل شيء في مكانه من ألوف السنين. ستظل النباتات خضراء وتظل الشمس تحقنها بالفيتامينات والماء يقوم بدور الأسانسير ينقل خيرات التربة من الجذور إلى الأوراق. وتظل الآفات الزراعية تأكل الزراعة وتريد أن تأكل الفلاح والتاجر والسمسار والدودة والعملات الصعبة. ولكن السماء صافية زرقاء لها ذلك اللون الذي نقرأ عنه ولا نراه من تحت السحب التي تطلقها مئات الألوف من الموتورات الصاخبة في القاهرة. والهدوء شامل، والهواء تمرغ بين النباتات والحيوانات والقنوات، لكنه برغم ذلك منعش!!

والناس بالعشرات، عددهم قليل، متباعدون، يتحركون بلا صوت أو لهم أصوات لا تتحرك.. فلا أحد يسمع أحدًا، وكل واحد في حاله وحاله تحت قدميه؛ ولذلك انكفأ عليه. ومضت ساعات لا أعرف كيف.. وجاء أصدقاء مثقفون وتناقشنا في قضايانا، أحسست أنهم يرددون أصداء المدينة التي كرهت صوتها وصداها.. وأحسست بأنه لا مفرَّ من أن أعاود الحياة في المدينة وأنا في قلب الريف.. وأن الراديو والتليفزيون والصحف تلاحق الجميع في كل مكان.. وأنه لا أمل في

أن يكون الإنسان بعيدًا عن المدينة. وبصراحة تعبت من الساعات التي أقمتها في الريف.. فأنا مثل بحار اعتاد هياج البحر واهتزاز السفينة.. وفوجئ بأنه ألقي على الشاطئ فلا موج ولا رياح ولا اهتزاز ولا دوار بحر..

أو مثل طيار أرغم على الهبوط الاضطراري.. فوقف على الأرض دون أن تملأ أذنيه أصوات المحركات ودون أن يرى سحابًا أو يهبط إلى مطبّ هوائي!!

أو كأني قرموط سمك عاش في بحر من الماء الذي يغلي بجنون.. وفجأة جفّ ماء البحر وانخفضت درجة حرارته وانسابت مياهه صافية ناعمة حريرية.. وانزعجت.. لقد اعتدت أن أتساند بأذني على الأصوات، وبأنفي على الغاز المحترق، وأتوكأ بعيني على جدران البيوت والسيارات والتعثر في الناس.. ولكن فجأة أعلنت حالة الطوارئ، وهدأ وسكن واختفى كل شيء.. فأحسست أنني مطرود من الحياة المجنونة إلى إحدى المصحّات العقلية!

فقد تذكرت عبارات بليغة قالها المرحوم كامل الشناوي، يقول: ذهبت إلى أحد المقاهي الصاخبة ولم أكد أدخل من الباب حتى تطلع الجميع، وهدأت الأصوات، فخفت أن تقع العمارة، كأنها أقيمت على أعمدة من الضوضاء!

عيال في حديقة الأسماك !

رأيت أن أكتب عن حدائق القاهرة الجميلة - التي كانت جميلة عندما كنا شبابًا صغيرًا جميلاً أيضًا. ذهبت إلى حديقة الأسماك في الزمالك.. وكانت لنا فيها أيام. كنا نجلس تحت الأشجار - تحت أوراق الشجر وتتخللنا كل أنواع النمل في الحديقة.. أبيض وأسود وأحمر..

شيء غريب، لقد كان النمل مثل أوراق الخريف لا يلسع.. وكنا ننام نومًا عميقًا. كيف؟ لا نكاد نلقي بأجسامنا في العشب حتى يسارع إلينا النوم غطاءً حريريًّا. ومن بعيد تجيء أصوات البنات الحلوة.. معظم البنات يعملن مربِّيات لأطفال الخواجات من رجال السلك الدبلوماسي ورجال الأعمال، وكان لي صديقة أمها إيطالية وأبوها حبشي.. جمعت بين الملامح الحبشية الحلوة المحندقة والعينين الزرقاوين والشعر الذهبي. خلطة عجيبة! كنت أنتظرها حتى تجيء هي وطفلها. أما الكلام والحكايات فتجيء وحدها. ولا أول لها ولا آخر. هي تقول وأنا أيضًا.. هي تضحك وأنا أيضًا. واليوم يمضي بسرعة ويجيء العصر والمغرب والعشاء، وأكون قد أمسكت يدها مودِّعًا على أن نلتقي في اليوم التالي.. ونلتقي يوميًا. أسبوعيًّا. شهريًّا، سنوات من الحب. نعم من الحب. وعندها كتب في الأدب والفن

والسياسة والتاريخ. لم أجرؤ أن أسألها إن كانت كتبها أو كتب سيدها. كتبها أو مسروقة.. أنا مالي؛ أنا أريد أن أقرأ وبس!

ولم أكن وحدي. فمعي الفنان الأثري كمال الملاخ والفنان الشيوعي حسن فؤاد. وكل واحد مشغول بواحدة.. الملاخ معه فتاة من كولومبيا، وحسن فؤاد معه فتاة من كورسيكا. وكلنا يضحك. ولا نشارك في أي شيء.. وإنما السعادة نتنفسها جميعًا. ولم يحدث أن تساءلنا: وماذا يضحكك؟ وماذا يسعدك؟ ما هي المشروعات القادمة؟

أبدًا. ولا كلمة. نحن سعداء لأسباب مختلفة بعالم جديد ولغة جديدة وبنات حلوة. وكان الفنان الكبير حسن فؤاد أسبقنا إلى طعم المأساة.. قال لي: عاوز أتجوز!

– يا نهارك اسود. ليه؟ فقال: أحببتها يا أخي وهو انا حديد.. وانت؟ قلت: أنا أبدًا. لا زواج؛ لأنني لا شيء. لا قيمة لي في هذا البلد. تلميذ لا ظهر له لا أول ولا آخر ولا مستقبل. أبدًا. قال: افرض انها هددتك بأنها سوف تتركك إذا لم تتزوجها. قلت: لن أفعل أي شيء. فلتذهب إلى جهنم. أما أنا فلا زواج ولا بعد عشرين عامًا.

وجاء العالم الأثري كمال الملاخ يقول: طلبت مني الزواج وإذا تزوجتها فسوف تجد نفسها مخنوقة بأيدي العفاريت - إنها لعنة الفراعنة!

وهل صدقتك: قال: نعم. لدرجة أنها لم تعد تأتي إلى الحديقة منذ ثلاثة أشهر! قلت: ولكن قابلتها وأقنعتها بأنك كذاب وأنه لا لعنة للفراعنة. ثم إنها رأت أخاك الأكبر، ووعدها بالنظر في زواجكما.

فسأل: يعني إيه؟ قلت: لا بد أن تتزوجها. واختفى كمال الملاخ الفنان والعالم الأثري سنة لم نعد نراه ولا نراها في حديقة الأسماك.. وبقيت وحدي مثل شاعر الربابة أحكي قصة الأصدقاء الثلاثة الذين أحبّوا وهربوا.. وكان لا بد أن يهربوا.. وأن أهرب!

زرع .. درس .. شرب .. هرب !

– حضرتك مصري؟

– نعم..

البنت حلوة.. شعرها ذهبي.. عيناها زرقاوان.. في مثل سني. ولا بد أنها قد سمعت بالثورة المصرية، ولا بد أنها أحست أننا مثل كل الشعوب الأوروبية نغضب ونثور، ونقلب الأوضاع من أجل مزيد من التحرر من الفقر والمرض والجهل والظلم، وقلت: نعم مصري.. تحت أمرك!

وأشارت إلى أنها سوف تعود بعد قليل. لا بد أنها تريد عملاً في مصر، كأن تكون مدرسة للغة الألمانية. وقد أعلنت الصحف النمساوية قبل أيام أن مصر سوف تستعين بخمسة آلاف مدرس من النمسا – يدرسون اللغة الألمانية، وليسوا من ألمانيا.. وعادت ومعها طفل جميل تحمله على صدرها. وكان لا بد أن أمدَّ يدي وآخذ يديه وأقبلهما. إنه تحفة فنية. وفي إشارة رقيقة إلى أنها تريد أن تجلس إلى جواري فأفسح لها مكانًا في المقعد الذي استقرَّ في إحدى الحدائق. وأخرجت من حقيبتها ظرفًا وفي الظرف ورقة. وبيد مرتعشة قدمت لي الورقة. وقرأت وكتمت ضحكة، وسألت: ما هذا؟ قالت: عقد زواج عرفي مع زوجي الذي أنجبت منه هذا الطفل ولا أعرف أين هو.. وهو

مصري.. وسألت: وكيف تم ذلك؟ حكت أنه جاء ومعه ثلاثة من رجال الدين كلهم مُعمَّمون وعقدوا هذا العقد وتم التوقيع عليه واختفوا. ولا بد أنها رأت الحيرة والخجل والأسف والحزن في وجهي.. وسألتني.. فقلت: والله يا سيدتي هذه خدعة حقيرة. وأنا شديد الأسف لما حدث.. فالعقد يقول: زرع درس أكل شرب هرب.. وإمضاءات ليس لها معنى..!

ولم تطاوعني الأرض في أن تبلعني خجلاً منها ومن بني قومي؛ فالبنت حلوة وابنها جميل. وما كان هناك أي داع للهرب، ولكنها سفالة الشباب.

ولا أعرف بالضبط كيف تصرفت الفتاة ولا ماذا قالت ولا بماذا وعدت وتوعَّدت، ولا أعرف ما الذي يمكن عمله.. وحزنت. وفي الليل صحوت على دقات خشنة على باب غرفتي، وقفزت من السرير، إنه البوليس يستدعيني دقائق.. وذهبت وسألوني أن أعيد قراءة العقد المزيف، وإن كنت أعرف كيف أهتدي إلى هؤلاء الشبان.. حكاية عمرها أكثر من خمسين عامًا. ومنذ أيام فقط حكيتها، ومنذ أيام سمعت العجب العجاب، فهذه الفتاة النمساوية جاءت إلى مصر وبذكائها الشديد استطاعت أن تهتدي إلى أصدقاء الزوج، حتى اهتدت إلى الزوج، وذهبت له وحدها، ثم مع ابنها. وكان هدفها لا أن تجد زوجًا وإنما أن تجد أبًا لولدها. وفي إحدى حفلات الأوبرا فوجئت بسيدة متقدمة في السن جاءت تقول لي: حضرتك مصري، قلت: نعم.. فاقتربت مني وهي تقول: زرع درس أكل شرب هرب..

– هاها

– هاها

تزوجوها سويسرية !

لنا صديق تزوج سويسرية. قصة حب. أحبها وكلنا أحببناها. فارتضينا له هذا الزواج السعيد. وهو بالفعل كذلك. ولم نشغل بالنا كيف يكون المولود: أمه شقراء وأبوه أسمر. فليكن ما يكون.. هذه كيمياء، سوف نرى نتائجها قريبًا. وظهر المولود. ليست له ملامح واضحة، وإن كانت أمه تؤكد أن أصابعه مثل أصابع والده وأن أنفه مثل أنف جدته السويسرية، أما العينان فزرقاوان.. طبيعي..

أما الذي بهرنا فهو كيف تقوم هذه السيدة بتربية هذه العجينة وتشكيلها منذ اللحظة الأولى على استقبال القرن الواحد والعشرين.

أولاً: هناك موسيقى اسمها (موتسارت للأطفال)، أي الموسيقى التي اكتشفها العلماء في سيمفونيات وأوبرات موتسارت تساعد الأطفال على النوم الهادئ 24 ساعة يوميًا مع موتسارت.. منتهى الجمال والرقة.. هذه الموسيقى هي أحضان حريرية ومهد ضوئي وعزل صحِّي للكائن الجديد..

شيء آخر.. إن الأم تضع أمام طفلها مساحات لونية: أحمر وأخضر وأزرق، وتحركها ليحرك الطفل عينيه معها وينام..

ويندهش الأب المصري الفلاح أن أم الطفل عندما تداعبه بالألمانية يبتسم ويحرك ذراعيه وساقيه. ولكن عندما يجيء هو ويداعبه يصرخ. ويتساءل. والإجابة واضحة: صوت الأم الذي اعتاده الطفل هو نوع آخر من الموسيقى.. أما صوت الأب فهو مثل صوت (المسحراتي) جلجلة وصلصلة وطبلة؛ فلا بد أن يصرخ الطفل. أما إذا جاء جده لأبيه فهو يقترب من الطفل ويداعبه بأن يمسكه من أذنه فيصرخ الطفل، ويندهش الجد. طبعًا لا بد أن يصرخ فليس في مفردات الأم التربوية والنفسية خلع الأذن وهذه هي الدعابة الخشنة!!

أما إذا بكى الطفل فبسرعة تذهب الأم وتدير أجهزة التكييف وترفع صوت موسيقى موتسارت وتترك الطفل يبكي دقائق أو حتى نصف الساعة دون أن تتدخل. ويحاول الأب والضيوف، ولكن الأم ترفض.. لماذا؟ لأن الطفل عن طريق البكاء يريد أن يحصل على شيء، فإذا أجابته الأم إلى طلبه فسوف يكون البكاء وإثارة شفقتها هما الوسيلة الوحيدة للحصول على ما يريد.. إنه ابتزاز. ولكن الأم تعطيه ما يحتاجه في الوقت المناسب ليعتاد على أن البكاء لا فائدة منه.. ثم إن البكاء يساعد على فتح الصدر والنفس وتقوية الحبال الصوتية!

ويسألنا الأب: ما رأيكم؟

والجواب: هناك فرق يا سيدي!

كنوز الدنيا بملاليم!

نشرت الصحف أن القوات الأمريكية تبعث لجنودها في العراق وفي كل مكان بكل أنواع الكتب في الشعر والفن والتاريخ والعلوم. وتنشر لهم إنتاجهم الأدبي والفني. ولا يدهشني ذلك.. لهم الحق أن يقرأوا تمامًا كما أنهم يأكلون ويدخنون ويفرفشون ويصلون في كنائسهم ومعابدهم في كل موقع يتخذونه.

وقد عرفنا ذلك في مصر أيام الحرب العالمية الثانية؛ فقد كانت القوات البريطانية تأتي لجنودها بما لا نهاية له من الكتب.. الأعمال الكاملة لكل الشعراء: بالإنجليزية والترجمة عن الفرنسية والألمانية والإيطالية.. وكلها كتب يمكن وضعها في الجيب ـ أغرب كنز صادفته في حياتي وأنا ما أزال طالبًا أنظر إلى شراء كتاب كما ننظر اليوم إلى شراء يخت أو طائرة خاصة. ولولا سور «حديقة الأزبكية» الذي كانت تباع عليه الطبعات القديمة من الكتب، ولولا العربات التي تحمل كتب قوات الحلفاء، ما تكونت لديَّ أول مكتبة.. هذه المكتبة بقروش معدودة. أذكر أنني اشتريت «عربة كارو» عليها أكثر من مائة كتاب أنا وبعض أقاربي. وكانت فرحتنا عظيمة ونحن نساعد الحمار في جرّ هذه العربة إلى بيوتنا والناس حولنا يضحكون على ما آل إليه

حالنا: كيف أصبحنا باعة (سرِّيحة) نبيع كتب الإنجليز.. والحقيقة أننا لم نكن نبيع وإنما قد اشترينا أعظم ما في هذه الدنيا.

ولم يكن في هذه الكتب إلا عيب واحد أنها صغيرة الحروف.. ولذلك عندما كبرنا وأصبحنا قادرين على شراء طبعات كبيرة الحروف أهدينا هذه الكتب لمن يستطيع قراءتها.. لا أنسى ديوانًا من الشعر للشاعر الإيطالي ليوربادي.. وكانت القصيدة مكتوبة بالإيطالية على صفحة ويقابلها على الصفحة الثانية بالإنجليزية.. وكذلك ديوان الشاعر الألماني جيته (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) الذي ترجمه بعد ذلك أستاذنا عبدالرحمن بدوي. لم تكن عبارة عبدالرحمن بدوي سهلة، بل كانت أكثر وعورة من النص الألماني!

وقرأت رواية (عمال البحر) لأديب فرنسا العظيم فكتور هوجو.. ما هذا الجمال. ما هذه الروعة. ما هذه الأبهة. كيف يقول وكيف يصف وكيف يغوص وكيف يُحلِّق؟ الله يا أستاذ. وكنت أقرأ وأتذكر أنهم سألوه يومًا: قل لنا يا أستاذنا العظيم كيف كتبت كل هذا الفيض الجميل الجليل؟ فأجاب في سهولة: لأنني أكتب سطرًا كل يوم!

ولما أحبَّ شابة صغيرة كانت تسأله: أرني أصابعك.. كيف تتدفق منها هذه المعاني؟ وكان يقول لها: هذا هو الفرق.. من أصابعي تجيء المعاني ومن أصابع الله يجيء هذا الجمال - ويشير إليها!

الله يا أستاذ.

ومئات الكتب.. مئات النوافذ والأبواب والنسمات التي تفتح العين والأذن وتفتح الشهيَّة على الذي أبدعه الإنسان نثرًا وشعرًا.. وبالملاليم!

بطيء.. بطيء أيها الموت!

لا بد أن تكون هناك أسباب كثيرة لضيقك وأحيانًا لثورتك لأي سبب تافه في مكان عملك أو في البيت.. وفي البيت أكثر!

ومن بين هذه الأسباب أن الحياة في المدينة نوع من العذاب. فكل شيء ضيق. وكل شيء مزدحم.. الشارع والمواصلات.. الشارع نفسه عبارة عن غرفة طويلة مزدحمة يتقارب فيها الناس.

ولو لاحظت كيف تسير على قدميك حتى مكان عملك، لوجدت أنك تمشي في طريق واحد لا تغيره.. وأنك في معظم الأحيان لا ترى معالم هذا الطريق.. ولولا المطبات والبالوعة المكشوفة، لاستطعت أن تمشي في الشارع مغمض العينين.. فإذا ذهبت إلى مكان عملك فأنت تعرف الطريق: باب وسلم وغرفة ومكتب إلى جانب النافذة. والغرفة مليئة بالمقاعد والناس.. لا تستطيع أن تتخلص من المقاعد ولا من الناس.. كأنك تزوجتهم جميعًا فأنت تلعنهم.. وهم بنفس القدر يلعنونك.. ولا بد أن هناك أسبابًا تافهة جدًا تجعلك تتشاجر معهم من حين إلى حين.

والمواصلات نفسها أضيق من هذه الغرفة. ولولا أنه ليس عندك وقت للاستمتاع بالوجوه المتغيرة، لأحسست بأن الأتوبيس أرحم من

زملائك في المكتب أو المصنع.. ولكن السرعة والضيق والحرص على أن تصل إلى البيت ولو على قدم واحدة، كل هذا جعلك لا ترى هذه الوجوه.. ولا تشعر بأنها ممتعة لاختلافها عن زملائك في المكتب!

فإذا حاولت أن تستريح من هذه الغرف المغلقة الأبواب والنوافذ، فإنك تذهب إلى مكان آخر مزدحم.. السينما والمسرح والمطعم والنادي!

يضاف إلى هذه الجدران الحجرية أو الحديدية جدران أخرى: القواعد واللوائح والقوانين والأصول. وما هو واجب، وما هو ممنوع بالنسبة لعملك.. لرئيسك المباشر ورئيس رئيسك..

فإذا عدت إلى بيتك انضربت هذه المشاكل في ثلاثة أو أربعة على الأقل، ويصبح المجهود الذي تبذله في البيت، أضعاف الذي تبذله في العمل؛ لأنك مطالب في البيت أن تجد حلاً لكل مشاكل العمل والراحة من العمل والراحة في البيت ومن البيت.. والراحة منك أيضًا!!

ثم إن الانتحار البطيء تعذيب لمن يتمنى لك الموت السريع!

إذا فرغت الأيدي امتلأت بالدم!

ظهر شيء من العنف في سلوك بعض الشبان.. فاعتدى شاب على مهندس.. واعتدى شُبَّان على عروس.. واعتدى شاب على زوجة أبيه وأمه! وكلها ألوان من العنف الجنسي!

وفي الشوارع يعاكس الشُّبَّان الفتيات بصورة مؤلمة، فقد شاهدت شابًّا يشد شعر فتاة.. ثم يقرصها.. إلخ..

وسمعت عن قصة أختين كانتا تمشيان في شوارع مصر الجديدة فهجم عليهما أحد الشبان.. وامتدت يده إلى الصغرى، إلى شعرها وصدرها.. وقاومت.. وحاولت الأخت الكبرى أن تمنعه فضربها، وساعده في ذلك زميل له..

وفي الشارع وعلى مشهد من الناس هرب الشابان وتهامس الناس وتغامزوا وبكت الأختان.. وعادت حركة المرور في الشارع إلى ما كانت عليه..

أما المعاكسة والمتابعة والمطاردة ثم الرصاص الذي يطلق من أفواه الشبان فهذا في كل مكان.. وليس من الضروري أن تكون الفتاة أو السيدة تمشي وحدها.. وإنما من الممكن أن يكون معها زوجها أو أخوها.. أو الاثنان معًا..

قد سمعت من صديق أنه كان يمشي في أحد الشوارع مع زوجته وابنته في طريقهم إلى السينما.. وفوجئ الجميع بشاب يقول ما لا يقال ويصف ويتمنى ويحلم بأن السيدة التي يراها بين أحضانه.. وأن.. وأن.. واندهش الصديق، واقترب من الشاب ليوقفه.. و ليسكته. وفعلاً وقف الشاب ولكن متحفزًا ومعه ثلاثة، أربعة، خمسة آخرون، وليس على مرأى من الجميع رجل بوليس واحد..

أما في المواصلات فقصة أخرى.. أو مأساة أخرى يفرضها ضيق المكان واقتراب الأجسام في الزحام، والخوف من الفضيحة: أسوأ أنواع الاستغلال والجبن!

وفي بلاد العالم كلها أنواع من العنف.. ولكن في بلاد العالم أيضًا أساليب مختلفة لامتصاص هذا العنف المكبوت عند الشباب.. فليست المشكلة هي مشكلة العيون الفارغة لأن العيون ستبقى فارغة.. وآخر شيء يقفله الإنسان عند الموت عيناه.. فهو فارغ العين حتى الموت!

ولكنها مشكلة الأيدي الفارغة.. الأيدي التي لا تمسك فأسًا ولا قلمًا ولا مسطرة ولا حفنة من تراب في طريق عامّ أو صحراء.. إن هذه العيون والأيدي الفارغة ليس لها إلا علاج واحد: الحياة الاجتماعية كلها!

لا إحساس بالزمن !

اقترحت منذ وقت طويل أن ننزع عقرب الثواني من ساعاتنا لأننا لسنا دقيقين إلى هذه الدرجة.. واقترحت بعد ذلك أن ننزع عقرب الدقائق أيضًا.. فنحن لا نعرف إلا الساعات.. بل إننا لا نعرف الساعة الواحدة..

وفي حياتنا العادية نقول مثلاً: سوف أنتظرك ساعتين أو ثلاثًا.. ونقول: أرجوك أن تمر عليَّ في السابعة أو في الثامنة فسوف تجدني في الساعة التاسعة وسوف أنتظرك حتى العاشرة والربع..

والذي يفكر في مثل هذه العبارات وغيرها يجد أن الزمن لا معنى له عندنا.. كأننا لا نشعر به.. فنحن أحفاد هؤلاء الفراعنة الذين لا يحسبون أعمار آثارهم بالسنين ولكن بعشرات القرون..

وقد حدث أن اتفق ثلاثة من الأصدقاء على أن نلتقي.. واخترنا الساعة الواحدة.. أحدنا يمر على صديق في مكتبه.. ثم يأتي إلى حيث نجلس في نصف ساعة على الأقل..

وفي الساعة الواحدة لم يحضر أحد.. وظللنا جالسين حتى الثانية.. ثم نهضنا.. والتقينا في اليوم التالي.. ودار الحديث كالعادة وانصرفنا..

والذي أدهشني أن أحدًا منَّا لم يسأل الصديق لماذا لم يحضر في موعده ولا هو اعتذر.. ولا نحن سألناه..

ومعنى ذلك أننا اتفقنا على موعد.. ونحن غير جادين في الاتفاق.. وغير مقتنعين بحرصه على الموعد.. أو حرصنا على الموعد.. ومن الغريب أننا كل يوم نتفق.. وكل يوم لا أحد يجيء في موعده.. ويبدو أن ضرورة الاتفاق على شيء ما مجرد عادة.

عدم احترام هذا الاتفاق عادة أيضًا.. وعدم مناقشة احترام الاتفاق عادة ثالثة.. فلماذا يحمل الناس ساعات في أيديهم؟ إنها شيء للزينة.. أو إنها مبرر لأن نسخر من أي إنسان يفي بوعده فيجيء في موعده!! ولذلك أعود فأقترح نزع عقرب الساعات أيضًا.. أما الساعة نفسها فأقترح أن تبقى في مكانها لأننا اعتدنا أن نراها هناك!

ما لا تفعله الكلاب!

فجأة اكتشفت أن في بيتنا قطًّا سياميًّا. ليس هذا هو المهم ولكن المهم أن هذا القط قد قرر دون علم منا أن يعيش حياة خاصة.. هذه الحياة هي رواسب ألوف السنين..

فقد عاش أجداده في هدوء تام.. عاشوا مدلَّلين.. ومنعمين أيضًا.. وتوارثوا أسلوبًا في الحياة لا نعرفه؛ فهذا القطّ لا يأكل أيَّ طعام، ولا يشرب في أي وقت، ولا ينام على هوانا!! فالذي يأكله في الصباح لا يأكله مرة أخرى في الغداء.. فاللبن الذي تحبه القطط، لا يمسه هو، والبيض والسمك. ولا توجد وسيلة لإقناعه بأن يأكل هذا أو ذاك.. فمن ضمن أساليب الإقناع أن نضع له الطعام ولا نقدم له غيره.. فإذا جاع أكله؛ فالجوع كافر بأي قاعدة أو أسلوب متوارث.. ولكن هذا النوع من القطط قد ورث أسلوبًا آخر هو الثبات على الرأي حتى الموت!

ولأنه قط، فهو يتصرف كأيّ قط آخر.. يطارد الحشرات والطيور، ويترك أشهى الطعام ليجري وراء صرصار أو ورقة شجر أو سلك تليفون..

وإذا نحن اندهشنا لذلك كانت دهشتنا في غير محلها.. لأنه قط.. ولأن أجداده كانوا من النمور المتوحشين الصيادين.. ولأنه أصبح أليفًا منذ عهد قريب.. ولكن الغريزة في مكانها.. وأسلحتها هي عيناه وأذناه وأظافره..

ولأنه قط فلا بد من أن يقوم بالرياضة اليومية المفضلة وهي أن «يتمطع» ويشد رجليه وجسمه. ولا يتمكن من ذلك إلا إذا غرس أظافره في المقاعد والستائر.. ولما كان هذا يحدث يوميًا فإن عمليات التدمير والتقطيع تقع كل يوم وبانتظام وبإصرار.. فإذا قصصنا له أظافره لجأ إلى أساليب أخرى في ممارسة هذه الرياضة الصباحية..

فإذا مرض، كان لا بد له من علاج، وهذا العلاج عند طبيب بيطري.. والقطط ككل الكائنات الحية لا بد لها من دواء: حبوب ومشروبات وحقن..

ولكن لماذا كل هذا! لماذا له كل هذه الحقوق علينا؟ ولا بد أن هذه أسئلة يوجهها أيضًا كل أب لأطفاله.. لماذا لهم كل هذه الحقوق وعلينا كل هذه الواجبات..

والجواب الوحيد هو: أننا نحن الذين أتينا بهذا القط.. وفي ذلك تعهد مكتوب بأن نعنى به مقابل أن يعيش بيننا.. وليس من الإنسانية ولا الرحمة أن نلقي به في الطريق.. بالقط أو بالأولاد أيضًا.. وكثيرًا ما سمع الآباء من أبنائهم: وهل نحن الذين طلبنا إليكم أن تأتوا بنا؟

والسؤال وجيه وسليم.. ولكن الآباء يضيقون به.. لا لأنه صحيح.. ولكن لأن طريقة الأبناء في توجيه هذا السؤال فيها الكثير من الاستفزاز والعقوق..

وهذا ما لا يفعله القط والكلب في أي بيت!

بلا وعي كل ما نعمله .. !

نظرية: معظم الناس يمشون في الشوارع وهم نيام.. أو كأنهم نيام!

فمثلاً: إذا وقف شاب في الشباك ورأى فتاة تعبر الشارع.. من الممكن أن يكمل هذا الحادث البسيط على النحو التالى: الفتاة الجميلة الرشيقة تعبر الشارع، الهواء يرفع ثوبها قليلاً ويضغطه حولها. إحدى السيدات توقعها على الأرض ولا تقتلها.. الشاب ينزل بسرعة يشق طريقه بين الناس.. الناس يفسحون له الطريق. هو ينحني عليها، يحملها، تفتح الفتاة عينيها.. يرى الامتنان اللامع فيضمها أكثر، يحملها إلى البيت لأنه أقرب من أي مستشفى، ينصرف الناس، تفيق الفتاة من صدمتها.. وبسرعة يولد الحب في قلبين في جسمين.. ويتم الزواج عندما يدق باب غرفته. ويفيق الشاب من الحلم.. إنه حلم يقظة!

ويحدث شيء آخر: الشاب ينظر من النافذة. مرهق. فنحن في أيام الامتحانات، يتخيّل نفسه قد عبر الشارع. الأتوبيس قد داسه.. مات.. والجنازة في الشارع. يرفع غطاء النعش ليرى من هم أصدقاؤه الذين ساروا في جنازته. إنه حريص على أن يعرف الصديق والعدو.. وعلى أن يرى مدى حزن أبيه عليه.. فهو يعتقد أن أباه يحب أخاه الأكبر أكثر

منه.. وأن أمه تحب أخته أكثر منه.. ويفيق على صوت فرملة صارخة في الشارع!!

إن هذا الشاب يشكو من العلوم الصعبة.. ومن ضيق الوقت وحرارة الجو والضوضاء التي تحدثها أجهزة وآلات العمال أثناء حفر نفق الكوبري الجديد.. وهي لا تعمل بهذا النشاط إلا في ليالي الامتحان.. منتهى الوعي بمتاعب ومشاعر الناس!

وليس الإنسان في حاجة إلى أن يقف في الشباك يحلم.. وإنما يحدث أن يمشي الإنسان وهو يحلم. إننا مأخوذون من أنفسنا.. مسحوبون من أوهامنا ومخاوفنا ورغباتنا. نحاول أن نحققها. محاولة التحقيق تجعلنا نفتح عيوننا ولا نرى، كأننا نيام وكأن الدنيا كلها سرير.. وكأننا ننام بالطول. ولسنا سعداء دائمًا لدرجة أن الأبواب والفرامل هي التي تعيدنا إلى الحياة.. وإنما يحدث كثيرًا أن توقظنا فرامل حقيقية وأن تنفتح في رءوسنا الأبواب والنوافذ..

وأن ننتقل من الشارع إلى سرير حقيقي في أحد المستشفيات لأننا نيام.. أو لأننا نمشي ونجلس ونروح ونجيء ونتحدث ونحن نيام.. لأن الحياة نوم متقطع، أما الموت فهو النوم العميق ـ كلنا كذلك!

قليل ما نعرفه اليوم وغدًا!

عجيب جدًّا أمر مخلوقات الله من الطيور والأسماك وغيرها.. هناك بعض الطيور لسبب لا نعرفه تنتحر.. ففي أمريكا اللاتينية نوع من الأشجار لها بذور.. هذه البذور إذا دخلت معدة عصفور فإنها تتحول إلى مادة مشتعلة ويموت العصفور. وهذا العصفور لكي يموت بسرعة فإنه يبتلع مادة تساعد على الاحتراق.. وهذا الانتحار العام يتم مرة واحدة كل سنة!!

وفي السويد تتجمع مئات الألوف من الفئران كل سنة وتلقي بنفسها في الماء. ولا يوجد أي سبب علمي معروف لظاهرة هذا الانتحار الجماعي، وهذه الفئران تهلك المزروعات وهي في طريقها إلى الموت!

وهناك نوع من الأسماك ناعم الملمس كأنه «بلوظة» يدخل أحشاء أسماك أخرى عن طريق الفم.. ولا يكاد يستقر في داخلها حتى يتحول إلى وحش مفترس ينهش جسم هذه الفريسة من الداخل.. يمتص دمها ويمضغ لحمها ويتركها جوفاء تمامًا.. قبرًا عائمًا! من بحيرات مصر عبر البحر الأبيض المتوسط مارّة بجبل طارق.. ثم إلى منتصف المحيط الأطلسي، وتلتقي مع ثعابين أخرى من أوروبا وأمريكا، وفي

هذه المنطقة تتكاثر الثعابين.. وبعد ذلك تعود كل فئة إلى المياه التي جاءت منها.. دون أن تخطئ الطريق.. ودون أن يعرف العلم الحديث كيف عرفت طريقها ذهابًا وإيابًا!!

هناك صداقة غريبة بين بعض الأسماك وبعض الطيور.. فهنا طيور تغني للأسماك على سطح الماء.. وتلتف حولها الأسماك وتتكاثر في وقت معين من السنة.. وتتلقى هذه الطيور المكافأة التي تنتظرها بأن تظهر جثث بعض الأسماك التي ماتت بعد عمليات تلقيح البيض.. وتلتقطها الطيور أجرًا باهظًا على ما قدمت من رقص وغناء!

ومثل هذه الأسماك المتوحشة كثير من رغبات الإنسان التي تستولي عليه من الداخل فتقضي عليه أيضًا: حقده.. طمعه.. انتقامه..

إن الإنسان حوض أسماك متوحشة تفترسه من الداخل، فيفترس هو أيضًا غيره من الناس. إنه ينتقم لما يحدث في داخله! هناك ثعابين البحر.. إنها تخرج..

وغير ذلك مما يعلمه الله.. ويجهله الإنسان.. ويجهله أكثر الناس علمًا!

من دوخة إلى دوخة أكبر!

الدوخ أحد أمراض الصحفيين..

إما لأنهم يسمعون كثيرًا والذي يسمعونه يتركونه مدة طويلة في آذانهم.. أو لأن الذي يسمعونه يديرونه في رؤوسهم حتى تدوخ رؤوسهم!

تمددت أمام أحد الأطباء الكبار وقال: إنها الدوخة بسبب تعب في أذنيك!! وكان التشخيص سليمًا..

فذهبت إلى طبيب كبير آخر، وكأنني سمكة ألقى بها الموج بين فكَّي قطة.. ذهبت أشكو من الدوخة.. وبدت السعادة على وجهه.. إنه مشغول بكتابة بحث عن الدوخة لينشر في إحدى المجلات العالمية. وبسرعة دخلت في غرفة مظلمة. وتمددت والتفت الأسلاك الكهربية حول رقبتي وحول أذني.. والتصقت الأسلاك تحت العين وعلى الجبهة.. وأضيئت الأنوار الحمراء والخضراء في السقف..

ولم أعد قادرًا على الحركة.. وتذكرت ملابس رواد الفضاء التي رأيتها في المعرض الدولي في باريس.. وكان المطلوب أن أقلب عيني يمينًا وشمالاً. وكنت أسمع عبارات الاستحسان كلما قلت شيئًا، ولم

أفهم ما الذي يستحسنه. لا أعرف وإنما هناك أصوات غريبة تتلقى إشارات من الأسلاك التي التصقت بكل أعصاب العين والأذن..

وبعد ذلك انتقل الدكتور إلى تدويخي.. فراحت المياه الباردة تصب في أذني اليسرى.. وأدوخ ومطلوب مني أن أتكلم وأدلي بمعلومات.. وانتقلت المياه الباردة إلى الأذن اليمنى.. ثم جاء دور الماء الساخن.. وتكررت الدوخة..وأنا لا أعرف ماذا أقول.. ولكن هناك أجهزة إلكترونية تسجل كل حركات العينين.. وتدحرجت إلى الأرض كأي رائد فضاء بلا مظلة..

وفي اليوم التالي تكررت تجاربي على الأصوات وأصوات الصفير والإشارات الصوتية.. ووضعت السماعات على أذني.. وكان المطلوب أن أحدد بالضبط الفوارق الصوتية بين الإشارات التي أسمعها..

وجلست أمام الطبيب لأعرف النتيجة: ما الذي حدث؟ وكيف حدث؟ وما الحل؟ وكان يقوم بعمليات حسابية معقدة لردود فعل الأذنين وحركات العينين.. والنتيجة وهذا هو الأهم لنا جميعًا: ليس هناك غير علاج واحد.. الراحة.. الراحة.. كل إنسان من الضروري أن يستريح على قدر ما يستطيع، تعبت من المشي. مدِّد رجليك، إذا لم تستطع أن تنام فاجلس.. إذا لم تستطع أن تذهب إلى السينما فاخرج إلى الشارع.. المهم أن تكون على راحتك.. وعلى مهلك.. هذه ضرورة لتستريح الأذن وتذهب الدوخة. وأكثر الناس دائخون ولكنهم لا يعرفون السبب. وهذا هو أهم الأسباب؟

إنني كلما تذكرت ما حدث لي فإنني أدوخ، ولذلك لن أتذكر ماحدث!

من النار إلى النور؟

من المناسب أن نتذكر دائمًا أسطورة إغريقية تتحدث عن أحد الأبطال الذي مدَّ يده إلى الشمس وأخذ جزءًا من نارها ليعطيه لبني الإنسان.. هذا البطل اسمه بروميثيوس.. ويبدو أن آلهة الإغريق كانوا قد قرروا أن الإنسان يجب أن يعيش في الظلام والرطوبة؛ لأن الإنسان إذا عرف النار والنور أصبح عظيمًا شامخًا.. وأصبح قادرًا على تحدِّي قوى الطبيعة..

ولذلك قرر الآلهة أن يعاقبوا هذا البطل. وآلهة الإغريق هم آلهة التعذيب وفنون التعذيب. واختاروا لهذا البطل أسلوبًا فريدًا من العذاب.. وربطوه بالسلاسل إلى إحدى الصخور.. وجاء نسر عظيم يأكل قلبه. وكلما اختفى في أحشاء النسر، نبت قلب جديد للبطل.. وتجدّد عذابه إلى الأبد!

إن هذا استحق العذاب الأبدي؛ لأنه اختطف النور والنار للبشر.. لأنه أراد أن يغير ما في الناس.. أراد أن يجعل ليلهم مضيئًا كنهارهم وأن يجعل ليلهم دافئًا كنهارهم ولأنه أراد أن يخرجهم من الكهوف إلى مدن الحضارة..

وهذه النار أعطت للإنسان عمرًا أطول.. وحياة أنفع.. وجعلته إنسانًا يعيش في البيوت لا في الكهوف كالحيوانات.. ثم جعلت هذا الإنسان يتمرد على كل ما هو موروث.. تقليدي.. يتمرد في الدرجة الأولى على أنه خلق في الظلام ويجب أن يبقى الظلام: الجهل والمرض والفقر والذل والهوان.

فالنار جعلت الإنسان أقوى وأكثر تمرّدًا على مصيره وقدره.. وجعلته يؤمن بأن قدره ليس أن يكون مظلومًا ولا أن يكون مريضًا ولا أن يكون فقيرًا ولا أن يكون بلا رأي في شيء.. ولا متطلعًا إلى شيء..

وقادة الشعوب وزعماؤها المخلصون هم هؤلاء الأبطال الذين مدّوا أيديهم إلى النور والنار وأعطوها لشعوبهم.. واختاروا العقاب والعذاب.. اختاروا أن تشدَّهم الهموم إلى صخور المسئولية وأن تجيء الشعوب وتعيش من نور عيونهم وعلى دقات قلوبهم.. وتستدفئ بوهج حياتهم.. وأن تطول أعمار الشعوب لأنها سحبت رصيدًا نادرًا من أعمار أبطالها وزعمائها..

ولو سئل هؤلاء الأبطال جميعًا: إذا عدتم إلى الحياة من جديد فهل تختارون نفس النهاية بكل ما فيها من عذاب وحرمان.. لأجابوا جميعًا: نعم.. ولذلك فحياتهم عبرة وتضحياتهم مثل أعلى!

الموت ليس مشكلة!

طبيعي جدًا. ما دام الإنسان سوف يموت، فلا بد أن يتكلم عن نهاية كل شيء. نهاية هذا العصر، هذا الزمان، هذا الكوكب، هذا الكون! وكما قال أستاذنا الفيلسوف الوجودي سارتر: إذا وقفت إلى جوار طفل فأنت لا تستطيع أن تقول أنه سوف يكون غنيًا أو فقيرًا، مريضًا أو صحيحًا، لصًا أو صاحب فضيلة؛ ولكن تستطيع أن تقول وأنت آمن تمامًا أنه سوف يموت!

والموت ليس مشكلة؛ لأن المشكلة هي الوضع الذي له حلّ. والموت لا حل له. وإنما الموت (إشكالية) بلغة الفلسفة.. أي أوضاع مستحيلة الحل!

ونحن نفرض فكرنا الإنساني على كل ما حولنا؛ فنقول من حين لآخر: إن نهاية الكون قد اقتربت. ولكن على أي أساس.. إن الكون من صنع الله. والله لا أول له ولا آخر، ولا بداية ولا نهاية. وكذلك الكون. إننا لا نعرف متى كان هذا الكون. وهل هو كون واحد أو ألف مليون كون. وهل هذا هو الميلاد الأول لهذا الكون أو هو واحد بعد الألف مليون. نحن لا نعرف إلا في حدود قدراتنا العقلية وهي محدودة، والأدوات التي اخترعناها.. فالتكنولوجيا وهي (أطرافنا الصناعية)

هي عيون ترى أبعد وأعمق وهي أصابع من الرادار وهي كاميرات وهي معامل تدور حول الكواكب تحاول أن تعرف من خمسين عامًا ما خلقه الله من 14 ألف مليون سنة ـ حتى هذا الرقم لسنا على يقين منه!

فكلما تهلهلت طبقة الأوزون حول الأرض بسبب أول وثاني أكسيد الكربون، الذي تبثه مصانعنا إلى الغلاف الجوي حولنا (30 ألف مليون طن سنويًا).. شعرنا بأن أشعة سوف تقضي على الإنسان كما قضت على الأسماك والحيوانات البحرية في نصف الكرة الجنوبي.. وكلما تحرّك حجر خارج مداره صرخ العلماء بأنه بعد عشرين سنة وعشرة أيام وساعتين وثلاث دقائق سوف يصطدم بالأرض فتجفّ المياه وتحرق الأشجار وتموت كل أشكال الحياة ـ كما حدث من ستين مليون سنة عندما اقترب أحد المذنبات فأهلك الديناصورات وأحدث تجويفات في الأرض.. ولا بد من عمل شيء لتفادي هذا الموت المستعجل.

والموت الكوني في يد رئيس أمريكا أو رئيس روسيا.. في يد واحد فقط يستطيع أن يهدم الدنيا علينا. ومن قصص الحرب وأثناء أزمة الصواريخ الكوبية كانت هناك غواصة روسية تطاردها المدمرات الأمريكية. هذه الغواصة بها طوربيدات ذات رؤوس نووية. ولكي يتمّ إطلاق الطوربيد لا بد من قرار من ثلاثة من الضباط. وقد اعترض أحد الضباط فلم ينطلق الطوربيد النووي وأفلتت الكرة الأرضية من حرب نووية. ولكن من يدري ربما في القادمة يوافق الثلاثة على إطلاق الطوربيد أو ينفرد واحد بالقرار بعد أن يقتل الضابطين الآخرين..

فالموت على رقاب العباد برًّا وبحرًا وجوًّا.. والإنسان وحده الذي سوف يدفن نفسه في الأرض وفي السماء وتحت الماء ـ إنه قدرنا!

شارون يبيع البطيخ لمصر!

عندما كان إيريل شارون وزير زراعة إسرائيل اتصل بي يقول إنه سوف يجيء للقاء الرئيس السادات.. وأنه سوف يجيء بالسيارة وليس بالطيارة ليرى أرض المعركة التي خاضها ضد مصر في 1967 و 1973 إيه يعني؟ لا يهم حتى لو جاء زاحفًا على بطنه. فقلت للرئيس السادات، فقال: أنا أتمنى أن يجيء شارون بعد عشر سنوات أخرى ليرى ماذا نصنع في سيناء.. سوف يرى العجب - حتى يتوجع قلبه وقلب اللي خلفوه!

وفي ذلك الوقت كان د. داود وزير الزراعة المصري يقيم في حديقة الحيوانات بالجيزة في استراحة الملك فاروق. واتفقنا على أن يكون العشاء في الحديقة. وأطلق الوزير الغزلان والفيلة والزرافات حولنا؛ فكان جوًّا إفريقيًّا استوائيًّا مثيرًا.. وجلسنا: الوزيران وزوجة شارون والسفير الإسرائيلي ساسون وزوجته وأنا. وجاء الطعام. لا أذكر منه شيئًا. وكان لا بد أن أعرف من شارون ما الهدف من هذه الزيارة لكي أخبر الرئيس السادات قبل أن يلقاه في استراحة القناطر الخيرية. وعرفت وتأكدت أن شارون جاء يبيع لنا نوعًا من البطيخ بلا بذور: أصفر وأحمر وبرتقالي.. كبير وصغير ومستدير ومستطيل..

ولم أتصور أن شارون سوف يحضر البطيخ ويعرضه على الرئيس.. ويفتح بطن البطيخة ويقدمها لنا لنتذوقها ونتأكد من حلاوتها.. وانقلب الوزير والقائد العسكري إلى بائع بطيخ محترف. أما فتحه للبطيخ وتقطيعه له، فمثل أي بائع في سوق الخضار اهتدى في القاهرة..

وكان شارون رجلاً خشنًا وقد تشاجرنا كثيرًا لأسباب ولأسباب تافهة. وفي شرحه لمزايا البطيخ الإسرائيلي قال للرئيس السادات: أنا سألت المخابرات عندنا كيف يأكل المصريون البطيخ قالوا: إنهم يبيعونه شرائح في الشارع. وكل واحد يقف يشتري شريحة ويأكلها في نفس المكان رغم تعرضها للتراب والذباب.. ولذلك ـ هو يقول ـ أتينا ببطيخ صغير في حجم الشريحة مغلف وبعيدًا عن الذباب؟!

فتضايق الرئيس السادات وقال له: تعرف يا شارون أن الذباب ليس هو المشكلة. هذا الذباب لم يكن موجودًا من قبل؛ فالبطيخ الإسرائيلي هو اللي عنده قدرة غريبة على استدراج الذباب.. هاها..

ولم يدرك شارون النكتة فقال: الذباب الإسرائيلي مختلف؛ إنه كالموجود في الأردن والضفة الغربية وهو من ناحية اللون والحجم.. إلخ وحاول السفير ساسون أن ينقذ الموقف والمطبّ الذي وقع فيه شارون فقال: يا سيادة الرئيس، بعد هذا العرض المختصر سوف نأخذ الذباب والبطيخ ونعود به إلى إسرائيل.. هاها..

– هاها..

أحذية أمام مكتب الوزير!

في الشارع الجميل في برلين شارع كورفيرستنندام ـ وهو يشبه شارع الشانزليزيه في باريس وأكسفورد ستريت في لندن، وفيانا سيوناني في روما، وجنزا في طوكيو.. وبعد الحرب مباشرة، كان باهرًا ساحرًا. والدنيا من حولنا تتألق والطريق إلى برلين الشرقية مظلم كئيب حزين خراب. وفي أحد المحلات التجارية في برلين الشرقية ذات الروائح الكريهة الخانقة لفت سمعي اثنان يتكلمان اللغة العربية بلهجة مصرية. وقفت أسمع. سألتهما. أما أحدهما فهو السيد عبدالعزيز سليمان صاحب السيرك المشهور في برلين والذي أعجب به هتلر وأهداه نيشانًا لشجاعته وإخلاصه في تقديم فن بلهواني رفيع المستوى مع الأسود والنمور والأفاعي.. أما الثاني فأخوه.. وهو رجل مبتكر أو يريد أن يكون. وبسرعة دخلنا في موضوعات كثيرة. فنحن مصريون وعندنا حكايات وروايات. أما حكايتهما فهي الأمتع، فهما يعيشان في ألمانيا من ثلاثين عامًا. لهما زوجات وأبناء وبنات.

أما السيرك فقد انتهى بنهاية عصر النازية.. ولن يمكن إحياؤه لا في ألمانيا ولا في مصر. انتهى. وصاحب السيرك يريد أن يعيش. ويستطيع لأن لديه فلوسًا كثيرة!

أما المخترع وهو السيد فريد سليمان فعنده أفكار في مجالات كثيرة في صناعة الورق والجلود وعصائر الفاكهة والخضراوات. وعنده نظرية في إعادة استخدام الملابس القديمة عرضها على برلين الشرقية ولكنهم لم يأخذوا بها. وسألني: ما رأيك، هل يمكن تطبيقها في مصر؟

قلت: ممكن. تعال ونحن نجرب. وبعد أيام فوجئت به في القاهرة. واتصلت بوزير الصناعة وحدثته عن المصريين الألمان ومشروعاتهما من أجل مصر. وتحمَّس الوزير ونقلت للأخوين ترحيب الوزير. وحددت لهما موعدًا. وذهبنا للقاء الوزير.. وانشغلت عنهما. ولم أعد أسمع أخبارهما. وفي يوم قابلت الوزير، وسألته، فأبدى أسفه الشديد لما حدث. فما الذي حدث؟ جاء البوليس واعتقل الأخ المخترع بتهمة التسول في الطريق العام!

فالأخ المخترع لا يحسن النطق باللغة العربية، ثم إنه لا يعتني بمظهره الخارجي. وقد حمل إلى الوزارة شنطة مليئة بالأحذية القديمة، ونشرها أمام مكتب الوزير، وانتظر أن يمر الوزير ليقنعه بنظريته الجديدة في تذويب الجلود القديمة وإعادة عجنها مع معالجتها كيمياويًّا لتكون جلودًا جديدة قوية، فظنوا أنه متسول وأنه أساء اختيار المكان وأساء التعبير أيضًا.

وجرجروه إلى قسم البوليس، ولما رأوا جواز سفره الألماني أطلقوا سراحه فوقف في الشارع يعلن عن بضاعته ويلعن مصر والمصريين

وألمانيا والألمان ويبصق في وجه كل واحد ذهابًا وإيابًا! وسألني الوزير فقلت: ولا حاجة، إنه صاحب فكرة جديدة كفر بها الناس فاتهموه بالجنون؛ فأصرّ أن يكون مجنونًا. فأراح واستراح، وتأكد الناس من جنونه لأنه مضى طوال الوقت يقول: أين أنت يا هتلر أين أنت!

مَنْ هي ملكة هذا الكون؟!

أرجو أن تفكر قليلاً قبل أن تجيب عن هذا السؤال: ما هي ملكة جمال الكون؟ إنها ليست واحدة وإنما اثنتان ـ صدقني لقد رأيتهما وانبهرت. وكانت الرؤية طويلة، ساعة وراء ساعة.. وليلة وراء ليلة. لم تنطقا بكلمة واحدة. ولم تكونا في حاجة إلى ذلك.. فجمالهما أبلغ من أي كلام..

هل عرفت؟ طبعًا لن تعرف.

أنا أقول لك: إن ملكة جمال الكون هي الكوكب (زحل) الذي يتحرك في مدار يبعد عن الشمس حوالي مليون ميل. إن (زحل) هو جوهرة التاج بحلقاته الملونة. هذه الحلقات بها ملايين ملايين الأحجار الصغيرة من التراب والجليد والغاز.. وقطرها خمسة وسبعون ألف كيلو متر.. وسمك هذه الحلقات عبارة عن غلالة بسُمْك موس الحلاقة. وهي على هذا الوضع الجميل منذ آلاف ملايين السنين. آه يا سيدي لو رأيت هذا المنظر البديع من مرصد كبير. آه! لو رأيت لسقطت مسحورًا مبهورًا. ما هذا الجمال والجلال والأبَّهة؟ سبحان اللَّه..

وكان العالم الفلكي الإيطالي جليليو هو أول من رأى هذه الحلقات سنة 1615.

أما ملكة جمال الكون الثانية فهي كوكب الأرض. إن رواد الفضاء عندما رأوها من القمر ومن وراء القمر.. وجدوها كرة من الأزرق والأخضر.. لؤلؤة.. حجر كريم هادئ ناعم.. ورغم إعجاب الرواد والعلماء بصور الأرض البديعة فإنهم يفكرون في البحث عن كوكب آخر من الممكن أن نستأنف عليه الحياة. ونحن لا نعرف إن كنا سنواصل الحياة في هذا الكون أو نقفز إلى كون آخر.. فمن المؤكد أن هناك ألوانًا أخرى غير ما هو معروف لنا. قد يكون عددها ألفًا أو مليونًا.. ثم إن كل ما في الكون يمضي بعيدًا وبسرعة أكثر من أي وقت مضى. إلى أين؟ لا نعرف. وإلى متى؟ لا نعرف. وكم مرة خلق الله هذا الكون وأكوانًا أخرى؟ لا نعرف.

ومن يدري؟ ربما اهتدينا إلى سلم فلكي ضوئي ينقلنا من هنا إلى هناك إلى حيث لا نعرف الآن.. إلى كواكب أخرى..

والفيلسوف الفرنسي رنان كان يتمنى لو خلقه الله في آخر الدنيا ليعرف ما الذي استطاع الإنسان أن يحققه.. ولكن الفيلسوف ـ ولكننا أيضًا ـ لا يعرف متى (في آخر الدنيا).. بعد ألف مليون سنة.. بعد مليون مليون؟!

وليس أمامنا إلا أن نتفرج ونستمتع إلى ملكتي هذا الكون: زحل والأرض!

وكانت القصيدة بديعة فاعتذرنا

فجأة شعرت مع فنان الكاريكاتير رمسيس أننا عاجزان عن الحركة؛ أنا قد مشيت كثيرًا أبحث عن كتب جديدة للأطفال، كتب لم أسمع بها. وكثيرون أيضًا.. ورمسيس تعثر فوقع. ووقفنا معًا في حاجة إلى مساعدة. ولم نجد إلا د. عصام شلتوت أستاذ الطب النووي بجامعة برلين. جاءنا بسيارته أخذنا إلى العيادة. وحقنة هنا وحقنة هناك. وكدنا نطير ولا نشعر بأجسامنا. حاجة جميلة.. وأسرفنا على أنفسنا في المشي والقفز كأننا غزلان. وفجأة بدأت أشعر بتنميل في ساقي. وتحولت حركة الغزال إلى حركة فيل.. ثم إلى حركة تمساح ثم ثعبان، وكدت أزحف على بطني.. فقدماي لا تقويان على حملي.. أين أنت يا دكتور؟!

حتى فزورة أبو الهول التاريخية لا تنطبق علينا. فالفزورة تقول: ما هو الحيوان الذي يمشي على أربع ثم على اثنين ثم على ثلاثة. والجواب: الإنسان.. يحبو على يديه ورجليه.. ثم يمشي علي ساقين وأخيرًا يمشي يتوكأ على العصا.. أما حالنا فقد كان غير ذلك تمامًا.. لقد أحسسنا أننا في حاجة إلى من يسحلنا أي يجرجرنا على الأرض وراءه!

لم نجد د. عصام شلتوت. بعض المصريين نصحونا بأن نتصل بـالـدكـتـور فـريـد أبـو قـورة أستـاذ الـعـظـام في المستشفـى الحكومـي. اتصلنا. قال في التليفون: عليكم بحبوب كذا وكذا.. وعليكم أيضًا بحقن كذا وكذا.. وتحمس رسام الكاريكاتير رمسيس إلى أن يقوم هو بشراء هذه الأدوية فالحاجة ماسة إليها. وغاب وعاد. سعيدًا. ومع كوب من الماء تناولنا العقاقير المهدئة للأعصاب المنشطة للعضلات. وجلسنا ننتظر. وكان هو أول من صرخ: بطني.. مغص.. أعراض حمل.. يا نهار اسود. الحقوني.. الحقوني!

لقد ابتلعنا حبوبًا مسهلة. والحبوب كانت لزميل لنا. غلطتنا. ونحن الآن في قلب إستاد كرة القدم. والمسافة شاسعة بين أي مكان ودورة المياه ـ ونحن غير قادرين على الحركة..

وجاءت عربة الإسعاف وأصروا على سؤالنا: كيف تناولنا الحبوب الغلط، ومن الذي فعلها وإن كنا نتهم أحدًا؟

واتهمت الفنان رمسيس فحجزوه. وتمكنت من دخول دورة المياه. وجاء البوليس يسأل عن متهم.. أي عن الذي ارتكب هذه الغلطة ولم نجد أحدًا نتهمه. وإنما اتهمنا أنفسنا. ولكن البوليس أكّد لنا أن هذه هي الحادثة الخامسة في ثلاثة أيام. ولا بد من معرفة هذا المجرم. وكان لنا صديق يَمَني يضايقنا كثيرًا فهو شاعر، وشعره سخيف جدًّا فأمسكوه يومين حتى يجدوا من يترجم له اللغة الألمانية!

أما القصيدة التي نظمها ضدّنا فكانت بديعة فاعتذرنا له!

لأسباب لا أخلاقية كثرت المسامير!

وما الذي في مسمار صغير في الطريق؟ فيه شيء كثير!

ما معنى أن يلقي الإنسان بمسمار في الطريق، قد لا نجد لهذا أي معنى أو أي ضرر على أحد من الذين يرتدون الأحذية.. وأكثر الناس عندهم أحذية.. ولكنّ هناك عددًا كبيرًا جدًّا من الحفاة العراة لا يتوقفون عن السير في شوارع المدن.. وفي الطريق الزراعي بين القاهرة والإسكندرية، هناك السيارات ذات الكاوتش الناعم الذي تآكل من كثرة الاستعمال.. هذا الكاوتش الناعم يشبه الأقدام الحافية.. في الطريق الزراعي نجد عشرات السيارات قد اتخذت جانبًا من الطريق.. وعكف عليها بعض الركاب ينقلون عجلة ويضعون بدلاً منها عجلة أخرى. وهذه السيارة وأصحابها سعداء طبعًا؛ لأنهم اكتشفوا أن إحدى العجلات قد انفجرت. وأنهم عندما اكتشفوا ذلك وتوقفوا فجأة لم يصدموا سيارة أمامهم.. ولم تفعصهم سيارة خلفهم. إنهم سعداء.. وهم اكتشفوا هذا الخلل الطارئ، بعد أن قطعوا جانبًا من الطريق والسبب هو المسمار الصغير.. وأنه تحت الضغط ما زال يتعمق في الكاوتش حتى وصل إلى الكاوتش الداخلي وتوقفت السيارة!!

ولأسباب غير معروفة حتى الآن نجد أن معظم السيارات تنفجر عجلاتها قبل أو بعد دمنهور بقليل.. إنها لعنة دمنهور!! ولا علاقة بين

انفجار هذه العجلات وظهور محل الكاوتش بعد دمنهور بقليل.. وعليك أن تدخل إلى هذا المحل.. وعليك أن تأسف بحزن على كل من تسول له نفسه أن يسافر بهذا الطريق، ولا يسافر هو وسيارته بالقطار.. فالأسطى يجيء إليك متكاسلاً.. إنه ريفي لا ينفعل وليس على عجل.. ويضع «العجلة» في التراب - في الطين - ويفتحها.. ثم يبحث لك عن رقعة ويضعها على وابور الجاز ويضغط عليها.. إلى آخر ما يحدث عادة.. وبعد نصف ساعة تنفجر العجلة مرة أخرى. ماذا جرى؟ مسمار آخر ظهر في الطريق وهنا لا تجد محلاً يصلح لك العجلة وتزحف على أعصابك إلى القاهرة أو إلى الإسكندرية ويتكرر هذا كل يوم ولكل الناس أصحاب السيارات الحافية!!

والسبب أن أحدًا ألقى بمسمار في الطريق.. وإذا كان لا بد من إلقاء المسمار فلماذا لا يلقى في الترعة أو في المصرف.. ولماذا لا يحتفظ به في بيته.. فقد يحتاج إليه.. ولكن هذه المسامير هي ألغام عائمة.. هي قنابل موقوتة.. لا تنفجر ولكن تؤدي إلى انفجار السيارات وأصحاب السيارات.. والمسمار ليس إلا دليلاً على الحقد التقليدي بين الذي يمشي على رجليه والذي تمشي به سيارة.. وهو نفس المسمار الذي يمسكه بعض الناس ويجرحون به السيارات الواقفة في أي مكان.. إنها نزعة شريرة ضارّة ولا تفيد أحدًا.. إنها تضايق الناس ولكنها لا تمنعهم من السير في الطريق الزراعي.. ولا من أن يستوردوا سيارات من الخارج من كل لون وكل حجم وبكل طريقة! إننا نحتاج إلى مبادئ أخلاقية عظمى حتى لا يلقي إنسان مسمارًا في الطريق!!

.. وهكذا انتهت مغامرة الجيشا!

كانت في دماغي أفكار كثيرة ملونة مضطربة.. ولكن لم أشأ أن أسبق الأحداث. وانتظرت. وذهبت وحدي في الموعد المحدد. نحن الآن في مدينة كيوتو العاصمة القديمة لليابان ومهد مدارس بنات الجيشا. هذه الأفكار من خيالنا أو مما قرأنا عن بنات الجيشا. ذهبت.. وخلعت حذائي على الباب. ولبست القبقاب. وخلعت الجاكتة ولبست الكيمونو. وهو بالطو.. أو روب قصير الأكمام قصير الذيل.. وأشارت إحدى بنات الجيشا وقد انحنى ظهرها تمامًا أن أدخل. ودخلت. وانحنت وأشارت أن أجلس. وجلستُ. ولكن من الصعب أن أجلس على الأرض كما تجلس هي. ولكن جلست وعيني على الباب وانتظرت. وانفتح الباب.. وجاءت واحدة تمشي بخطوات قصيرة وسريعة.. أما الخطوات قصيرة لأن الكيمونو الذي ترتديه ضيق، وجعل حركتها خطوات قصيرة سريعة. والكيمونو ترتديه الفتاة اليابانية لكي تخفي الاعوجاج في ساقيها. وساقاها معوجتان لأن أمها اعتادت أن تحملها على ظهرها منفرجتي الساقين.. وبعد الاحتلال الأمريكي لليابان لم تعد المرأة اليابانية تحمل أطفالها على ظهرها؛ فهي تعمل.. واستقامت سيقان البنات والبنين.. وظهر الميني جيب يكشف الجمال الياباني الجديد..

نظرت إلى الجيشا وجهها أبيض بطلاء من الجير أو من الجبس وحاجباها مرسومان بالفحم وعيناها حمراوان من الخارج.. ونظراتها من تحت لتحت. وأحنت رأسها طويلاً. وهي لا تعرف أية لغة وأنا لا أعرف إلا كلمة: شكرًا ووداعًا. وبس.

وطال انتظاري. وطال صمتها. ولا حِسّ ولا خبر في كل البيت. كأنني الوحيد.. الزبون أو الضيف الوحيد.. ومش عارف أعمل إيه.. ومددت لها يدى؛ فمدّت يدها، وأحنت رأسها خجلاً وحياءً وأدبًا.. ومش عارف أعمل إيه.. وأخيرًا انفتح الباب وجاءت واحدة مع صينية شاي أخضر. وقدمت الشاي الأخضر الشديد المرارة. وشربت.. وصمتٌ طويل.. ولم أعرف إن كان مثل هذا اللقاء يستغرق ساعة أو ساعتين.. لم يقل لي أحد.. وانفتح الباب وجاءت من تأخذ أكواب الشاي.. وأغلقت الباب وراءها والباب كأنه شفتان أطبقتا على صمت وفي نعومة تامة..

وجاءت الفرصة لاستخدام الكلمة اليابانية الوحيدة: ارجاتو ـ أي شكرًا. ولم أقصد أن تكون هذه نهاية اللقاء. وإنما أحاول أن أستدرجها إلى أي كلام. وعند سماعها للكلمة نهضت وانحنت لتقول: دوه تسي ماتسا ـ أي عفوًا..

ويجب ألا أمرّ على هذه الكلمة بسرعة، فصوت الجيشا هو صورة طبق الأصل من صرصار انحشر في حلق ضفدعة تطلب النجدة!

وحاولت أن أسحب كلمة (ارجاتو) ولكنها كانت قد سبقتني إلى الباب الخارجي وقد انحنت على حذائي ووضعته في قدمي وانتهت بذلك مغامرة فتاة الجيشا ومعها كل الأفكار والخيالات التي لا أساس لها!

متعة.. ولن تندم

لا بد أن الخبر يهمك إلى حد ما. وقد يكون صغيرًا أو كبيرًا. ولأنك تعيش في عصر الفضاء، فلا بد أن تعرف أنهم اتخذوا قرارًا بإدخال تعديلات جديدة في التلسكوب الفضائي هابل ـ وقد اتخذ اسمه تيمّنًا بالعالم الفلكي الأمريكي إدوين هابل.

وإن كنت ناسيًا فسوف أذكرك. مهمة التلسكوب المداري أن له مدارًا دائريًّا مرتفعًا عن الأرض بحوالى 600 كيلومتر. وقد دار حول الأرض من سنة 1990 ما يعادل 97 ألف دورة. وقد صوّر لنا 14 ألف جسم لم نكن نعرفها.

وأهم وأخطر ما سجله لنا تلسكوب هابل أعمق أعماق الكون.. وصورة للكون نفسه بعد خلقه بلحظات.. يقال بثانية واحدة.. ويقال بواحد على الألف من الثانية. وعرفنا من هذه الصور أن الكون عمره الآن حوالى 14 ألف مليون سنة. وهذا التلسكوب هو الذي أكد لنا أن هناك «ثقوبًا سوداء»، أي ما لا نهاية له من النجوم التي تحتضر والتي بلغت قوة جذبها أنها تبلع كل شيء ـ حتى الأشعة المنبعثة منها، ولذلك تبدو سوداء. ثم إن هذا التلسكوب هو الذي أكد لنا مرة أخرى أن الكون منذ انفجاره لأول مرة لا يزال يتباعد ـ إلى أين؟ نحن

لا نعرف. ولا يزال يتباعد.

وهناك نظرية تقول إن هناك احتمالاً بأن يرتد الكون على نفسه ويتقلص ولا يزال في ألوف ملايين السنين حتى يعود كما بدأ ـ ذرة متناهية الكثافة، ثم يعاود الانفجار مرة أخرى ليظهر كون جديد ـ والله أعلم. وقد درس العلماء كل الاحتمالات. فلولا هذه التحذيرات والتطويرات والإحلال والإبدال في الصفائح الحافظة للمرصد من الحرارة وتغيير بعض العقول الإلكترونية والبطاريات لتوقف التلسكوب تمامًا بعد أربع سنوات؛ ولذلك كان لا بد من إرسال طاقم من رواد الفضاء في مكوك فضائي ينقلهم من الأرض أو من المحطة الدولية.

فهل أنا أضفت إلى معلوماتك شيئًا جديدًا؟ هل تشعر الآن أن هذه المعلومات التي كانت تنقصك بسبب انصرافك عن القراءة.. أو هذه المعلومات أصبحت سببًا في ألا تقرأ عن الفضائيات أو في أي مكان آخر.

عذري أنني غرقان في علوم الفضاء وأنها طعامي ليلاً ونهارًا. أرجو أن تشغلك ففيها متعة عظيمة. إن لم تجدها في الكتابة ففي كثير من الأفلام المصورة على الشاشات وعلى الإنترنت. صدِّقني.. إنها متعة لا مثيل لها ـ وهذا رأي كل واحد قد جرَّبها مئات المرات!

القلب وما يريد .. أنا لا أصدق !

كانت ليلة! العروس زميلة صحفية. وفي هذه المناسبة يجاملنا الفنانون: هذا يجيء يغني. وهذه ترقص. ويجيء كبار رجال الدولة. وكان العريس من أبناء إحدى الدول العربية. لماذا؟ لم أفهم كيف عرفها؟ كيف فكّر في الزواج منها؟ وهي فتاة عادية جدًّا، لا حلوة ولا أنيقة ولا غنيّة! والمثل يقول: القلب وما يريد!

وجاء عبدالحليم حافظ وبدأ يغني وحده والحاضرون يرددون: ياقلبي يا خالي.. وصافح معظم الحاضرين، وقبلة من هنا للعروس وقبلة أخرى للعريس.. وجاءت الراقصة ثريا سالم.. ومعها الصاجات، وواحد يدق الطبلة، ودارت حول العروسين.. وصفقنا لها وتسابقنا في شكرها..

وجاء محمد رشدي وغنى: تحت الشجر يا وهيبة ياما كلنا برتقال.. والعروس اسمها وهيبة!!

وكانت المفاجأة عندما دخل وزير الإعلام ومعه المطرب أحمد عدوية.. وكلاهما لا يعرف الآخر.. وقدمت الاثنين. ووقف أحمد عدوية يطلب من العروس ماذا تريده أن يغني.. وكانت مفاجأة أخرى.. فهي لا تعرف إلا الأغنيات الإعلانية.. وأشهرها أغنية عن الفلفل والشطة والكمون.. أغنية خضر العطار!

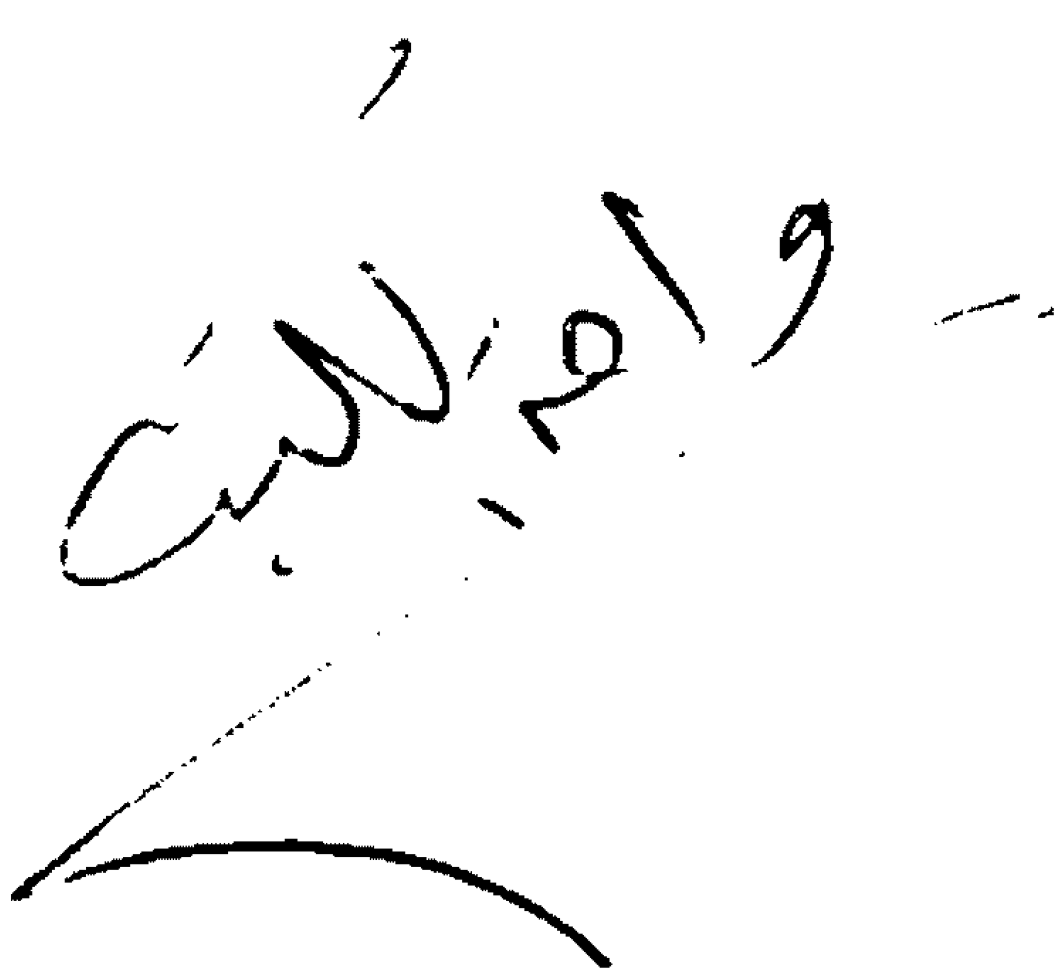
وانتهت الزفة بسلام.. ولكن عددًا من الفئران بدأت تلعب في عبي ـ كما يقول المثل الشعبي ـ : لماذا هذا الرجل الغني يتزوج هذه البنت الغلبانة؟ كيف؟ ولماذا؟ لم أصدق أبدًا أن الحب أعمى لهذه الدرجة.. وأن هذا الزواج هو إرادة قلب أو عقل..

وطلبت مدير مباحث أمن الدولة، وقلت: هذه حكاية غير معقولة. أرجو أن أكون غلطانًا.. وأن يكون سوء ظني في غير محله.. وكان سوء ظني في محله تمامًا.. فقد عرفت أن هذا العريس تزوج سبعًا قبل ذلك وطلقهن بعد شهر أو شهرين. ولكن لماذا؟!

السبب أنه بقسيمة الزواج يستطيع أن يستورد ما يشاء من أثاث بيت الزوجية من أي مكان في العالم..

وقد فعل. وباع أكثر من عشرين غرفة نوم وصالون وغرفة طعام وأدوات المطبخ والحمام.

وكان دمي يغلي.. أولاً: أرغمناه على طلاق الزميلة ودفع تعويض كبير لها وإلا.. ودفع.. ولكن ما حكم البنات الأخريات اللاتي خدعهن.. وكان من الصعب وضعه في السجن.. ولكن من السهل عمل أشياء كثيرة تلقى به في أحد المستشفيات، وقد حدث!



الرصاص يدوي.. فهربنا بجلدنا!

كنا في أتوبيس: صحفيين وعمالاً وموظفين.. أما الأستاذان مصطفى أمين وعلي أمين فقد استقل كل منهما سيارة.. وجلست مع عبدالحليم حافظ في سيارته.. ومعنا الموسيقار كمال الطويل.. وسمعنا من عبدالحليم وكمال الطويل عيّنات من الأغنيات والألحان الجديدة..

أما المناسبة فهي أن أحد الزملاء تزوج وهو يوم الفرح.. وحملنا الورود وبعضنا رأى أن يهديه فلوسًا أو يهدي العروس أساور ذهبية وكان المشوار طويلاً.. أكثر من 300 كيلومتر. وبعد ذلك كان لا بد أن نخترق طرقًا زراعية ضيقة وكانت مخاطرة. ثم وصلنا. وكما يحدث في الريف، هناك أعلام ومصابيح كهربائية والناس قد ارتدوا الملابس البيضاء.. وحاولوا قدر استطاعتهم أن يجعلوا الأرض ناعمة. حاولوا، ولم تطاوعهم الأرض كثيرًا..

وجاء العريس وبالأحضان والقبلات، وظهرت المقاعد المذهبة.. وظهرت أكواب الشربات. وتعالت دقّات الطبول. وظهر رجل كبير في السن.. لا بد أنه والد العريس.. أو أبو العروس، أو هو المأذون.. ووقف الحاضرون تحية له، وجاء الزميل الصحفي وقدمنا إليه..

وجاء رجال الشرطة: المأمور والمعاون ووكيل النيابة.. وأعضاء مجلس الأمة.. وبعض الوزراء.. وأحضان وقبلات وزغاريد.. ثم هذا المشهد الصعب جدًّا: ذبح الخراف. ولا أعرف ما السبب، أو ما المعنى في مثل هذه المناسبة.. أنا أعرف أن الذبح في عيد الأضحى فقط.. وأما الأفراح فلا.. ربما كان السبب أن العريس من أبناء الريف الأثرياء.. ربما. وجاء من يهمس. ولا بد في مثل هذه المناسبات من الهمز واللمز. لقد قيل لنا: إن العريس ليس زميلنا وإنما أبوه!!

وأبوه رجل كبير. وهذه زوجته الرابعة. وهي فتاة صغيرة.. أصغر منه بثلاثين أو أربعين سنة.. وأن العروس لن تظهر!!

مطبّ وقعنا فيه جميعًا! والزميل الصحفي لم يقل لنا أن والده هو العريس. وإنما هو قال: عندي فرح. فجئنا لذلك. وكان لا بد أن نجد حلًّا، وأن نتسلل عائدين إلى القاهرة.. لولا أن همس في آذاننا واحد آخر وقال: بل الزميل الصحفي أيضًا قد تزوج.. وهذه ليلة زفاف الأب والابن. وجاء من يهمس: إن عروس الأب أصغر من عروس الابن!!

وجاء مَن يهمس وينصح بأن ننهض فورًا فهناك معركة بالسلاح على أطراف القرية بين شبان كانوا قد تقدموا للعروسين.. ولا بد أن دماءً سوف تراق هذه الليلة.. وفي الظلام والموسيقى تزفنا: واتمخطري يا حلوة يا زينة.. طاخ «صوت الرصاص» طاخ «صوت رصاص آخر» وتحطمت الفوانيس وأظلمت الدنيا.. وتوارى العريسان والعروسان ونحن أيضًا!

لأسباب أخرى يضحكون!

ليس صحيحًا أن النكتة مفهومة عند كل الناس.. فالذي يضحك المصري لا يضحك الياباني.. بل إن بعض النكت المصرية لا تضحك المصريين أيضًا.

كان الأستاذ العقاد يضحك كثيرًا وهو يحكي لنا ما دار بينه وبين منصور باشا فهمي في جلسات المجمع اللغوي. ففي إحدى المرات تناقش الرجلان عن معنى الزمن والخلود والأبدية، فكان منصور باشا فهمي يقول: الزمن هو الفترة المحدودة.. أما الزمان فهو الزمن الذي ليس محدودًا!

وهنا يضحك العقاد ويتساءل: إلى أين نمد الألف في كلمة الزمان.. هاها.. هاها! ولم نكن نجدها تبعث على الضحك..

وعندما صاحبت الدكتور طه حسين لرؤية مسرحية توفيق الحكيم «يا طالع الشجرة» كان طه حسين يضحك وهو يقول: ولكن أخانا توفيق ليس خفيف الدم مثل الشاعر الفرنسي لوترامون الذي سبقه إلى معاني العبث التي حاولها الحكيم في هذه المسرحية هاها.. هاها..

ولم يقل لنا طه حسين ما الذي أضحكه لكي نضحك نحن أيضًا!

ومنذ أيام استمعت إلى (موسيقى مضحكة) للموسيقار العظيم موتسارت. هذه الموسيقى من عزف فرقة مصرية بقيادة المايسترو يوسف السيسي.. واستمعت وأطلت السمع وانتهت الموسيقى ولم أسمع فيها ضحكة من أحد.. لا من العازفين ولا من قائد الأوركسترا.. ولم أعرف ما الذي أضحك الموسيقار وكان من الواجب أن يضحكنا أيضًا!

وفي (إنجيل يهوذا الإسخريوطي) الذي عثر عليه أخيرًا في مدينة المنيا بمصر مكتوبًا باللغة القبطية. في هذا الإنجيل وجدنا المسيح عليه السلام يضحك ثلاث مرات. وفي كل المرات نجد أن الذي أضحك المسيح عليه السلام أنه وجد الحواريين يسألون أسئلة صعبة.. فهم بمنتهى البساطة يسألون عن قضايا صعبة جدًّا عن خلق الكون.. وكان المسيح عليه السلام يقول ضاحكًا: إن أحدًا لا يستطيع أن يعرف ذلك.. لا أن يفهم ذلك!

وقد ضحك المسيح عليه السلام من الصغار الذين يسألون أسئلة كبيرة تصعب الإجابة عنها، وإذا قيلت الإجابة، لصار صعبًا عليهم فهم ذلك!

وقبل أن أكتب هذه السطور حكيتها لصديقي المفتي الكبير.. فضحك كثيرًا. فأدهشني ذلك كثيرًا جدًّا!

الخوف هو أبو الضمير !

كيف نشأ الضمير في الإنسان؟

كيف نشأ هذا الصوت الداخلي الذي يقول لك: لا تفعل ذلك.. وعليك بعد ذلك أن تنتظر ما سوف تلقى من الأجزاء!!

كيف نشأ ذلك من عشرات الألوف من السنين؟

إن الضمير هو صوت القانون الذي نضعه والقانون الذي تضعه السماء.. والضمير هو: الفرامل التي تمسك الإنسان أن يفعل شيئًا.. وهو الكرباج الذي يضرب الإنسان إذا فعل..

لا بد أن يكون الضمير هذا قد نشأ من خوف الإنسان من الانتقام، أي خوف الإنسان من حيوانات الغابة أن تنتقم منه لأنه قتلها أيام كان مسلحًا.. وهذا الخوف من انتقام الحيوانات جعل الإنسان يختار الحيوانات ليعيش عليها.. وهو يهرب بعد قتلها.. ويتوارى في كهف ليأكل لحمها.. ولا يظهر من الكهف إلا عند طلوع الشمس.. ومسلحًا يعيش في الغابة من عشرات الألوف من السنين.. فالإنسان يقتل الحيوانات التي يجب أن يقتلها.. يختار المفترسة ويختار التي يتغذى عليها.. ولكنه لا يقتل الحيوانات التي استأنسها إلا نادرًا.. إنهم في

الهند لا يذبحون البقرة أبدًا، لأنها أمّ ولأنها مصنع للحياة ولأنها مصنع لبن وجبن وزبدة.. وإن كان أكثر الهنود لا يأكلون اللحم أو اللبن أو الجبن أو الزبد وكل ما يجيء من حيوان.. وكان الفراعنة لا يأكلون اللحوم، كانوا نباتيين وكانوا يقدسون الحيوانات.. فكأنهم أراحوا ضميرهم وأراحوا أنفسهم من الخوف من انتقام الحيوانات الأخرى.

والإنسان لم يركب الحصان أو الحمار إلا أخيرًا، وربما كانت حضارات بابل وآشور هي أسبق الحضارات إلى ركوب الخيل.. وكانت مفاجأة للمصريين عندما رأوا الخيل التي يركبها الهكسوس.

ولم يتحرر الإنسان من خوفه من الحيوانات إلا عندما ركبها، عندما ربطها في العربات.. هنا فقط تحرر الإنسان من خوفه من انتقام هذه الحيوانات.

حدث تغيير بسيط جدًّا على ضمير الإنسان: أنه لم يعد يخاف من قتل الحيوان أو الإنسان.. واعتاد الإنسان أن يهرب من نفسه إلى الانغماس في الناس ومع الناس حتى لا يسمع صوت ضميره.. تمهيدًا للقضاء عليه مع الأسف!

مبروك : لا علاج عندي!

بمنتهى الثقة ودون أي انفعال قال لنا الطبيب الكبير أنور المفتي: لا علاج لكما عندي. اذهبا والعبا بعيدًا!! وكنا ـ الكاتب الساخر محمود السعدني وأنا ـ قد ذهبنا إلى الدكتور أنور المفتي نشكو من ألم هنا.. في الجانب الأيسر من البطن. إنه القولون. ينتفخ ويتحول من أفعى تلتف حول الوسط إلى قنفذ يتكور ويتكون في الجانب الأيسر ونشعر بالدوخة. وكأننا في (ألف ليلة وليلة) حيث تتحول الحيوانات إلى بعضها البعض؛ فالثعبان يتحول إلى قنفذ والقنفذ يتحول إلى طائر له منقار والطائر يعود أفعى وهكذا.

وقررنا أن نتهجم على د. أنور المفتي ليجد لنا حلاً.. إنه يداعبنا دائمًا. وهي مداعبة خشنة من رجل لطيف ظريف. واقتحمنا عيادة د. المفتي. ولم يكد يرانا حتى ضحك ثم تعالت ضحكاته قائلاً: لم أكن هازلاً؛ فالقولون لا علاج له. إنه ينتفخ لأسباب عصبية وأنتم أيها الصحفيون عصبيون، وكل المثقفين كذلك. فهذا مرض المثقفين وأبناء الطبقة الوسطى أو ـ بلغة الروس ـ فئة الأنتلجنسيا، وبس. فهذا آخر كلام عندي وعند الطب المعاصر.

وصراحة د. أنور المفتي هذه ضايقتنا، وهددت صداقتنا له، ولكنه رجل صريح. وهو مُصِرّ على ذلك. ولا يمكن أن يكذب. إذن ما العلاج؟ العلاج في رأيه أن نتفادى الأطعمة التي تنفخ البطن، ونتفادى الأطعمة المخاطية مثل الملوخية والبامية ونتفادى شرب القهوة فلها رواسب تلهب الأمعاء فالشاي أفضل. ونتفادى الإمساك ونتفادى الإسهال.. وأهم من ذلك كله أن نحرص على ألا نرهق أنفسنا.. أما كيف يتحقق كل ذلك فهذا من شأننا، وليس من شأنه. أما الروشتة التي كتبها فكلها من الأعشاب والفحم وعسل النحل.

وقد دفع أنور المفتي حياته ثمنًا لصراحته؛ فهو الذي قال عن جمال عبدالناصر إنه رجل مجنون؛ وبسرعة ظهر الانتقام؛ ففي يوم قال لزوجته: إذا رأيت علامات معينة في عيني فمعنى ذلك أنهم قد وضعوا لي السم في الطعام. وظهرت العلامات التي تنبأ بها ومات. ولم نعرف حتى الآن كيف وضعوا له السّمّ. ومن الذي خان الطبيب الكبير وساعد على إنهاء حياته وصراحته العلمية.. وبعد وفاة أنور المفتي بثلاثين عامًا، قال لنا الأطباء ما سبق أن قاله بأن القولون هو رفيق الطريق وأنه لا علاج له. وأنه مكتوب علينا أن نعيش به ونلعنه ونترحم على أنور المفتي!

لا تخف إنه يأكل الفول !

توفيت سيدة معروفة في مصر اسمها (محاسن الحلو).. وهي سيدة صاحبة سيرك وتقوم بترويض الوحوش.. وهي مهمة شاقة وتحتاج إلى صبر وأعصاب وقوة ودراسة كاملة لعادات الحيوانات المتوحشة؛ فأسرة الحلو معروفة في مصر وهم جميعًا بلدياتي ـ أي من محافظة الدقهلية التي من أبنائها: لطفي السيد وهيكل باشا وأحمد حسن الزيات، والشعراء: سعيد عبده وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي وكامل الشناوي والهمشري والغمراوي وعلي باشا مبارك، وبلد أم كلثوم والسنباطي والمثال محمود مختار والفنانين: فاتن حمامة وسهير البابلي وعادل إمام ومحمد صبحي ويونس شلبي وسعيد عبدالغني والمخرج حسن الإمام.. وأم الأستاذ العقاد وأم المطربة هيفاء وهبي وآل الجميل في لبنان.

قالت لي محاسن الحلو: هذه المهنة ليست أخطر من مهنة الطيارين وعمال المناجم وأفران الغاز. إنها مهنة مثل أية مهنة أخرى، صعبة في البداية ولكن بعد ذلك يعتاد عليها ولا يفضل عليها أية مهنة أخرى..

وإذا كشفت عن ذراعيها وساقيها تجد آثارًا لمخالب وأنياب الأسود والنمور. ولا بد أن يصادفها كل من يعمل على استئناس هذه

الحيوانات التي طعامها لحم ودم.. وفي يوم ذهبت لزيارتها أسألها عن حادث اعتداء أسد على أحد الحراس وكيف أكل ذراعه ـ فكانت الضربة في قوة خمسين كيلوجرامًا من الحديد قد هبطت عليه بسرعة مائة كيلومتر في الساعة. قالت وأطالت. ولم يكن هذا هو الحادث الوحيد في السيرك.. ولا في أي سيرك آخر في العالم.. ولمحت من بعيد أسدًا يتقدم نحونا.. وكانت خطوته سريعة ونظرته ثاقبة نافذة مخيفة؛ فتراجعت وتجمدت في مكاني. أما هي فلم يظهر عليها أي شيء من الخوف أو المفاجأة، وإنما فتحت حقيبتها وقالت لي: اقعد.. اقعد. لا تخف، سوف ترى أنه ليس أسدًا. وإنما هو حمار وأقل من الحمار. لم أفهم. واقترب منها الأسد ووضعت في فمه شيئًا لا أعرفه، ثم قالت: ارجع.. ارجع! ورجع الأسد. وسألتها: ماذا وضعت في فمه؟ فقالت ضاحكة: تفتكر الأسد الذي يأكل سندوتشات الفول سوف يبقى أسدًا. إنه حمار. فأنا لا أستطيع أن أقدم له لحمًا كل يوم. إنه يحتاج إلى نصف حمار يوميًا. اكتب وقل للحكومة إن الأسود صارت حميرًا..

والمؤرخ ابن إياس لم يكن يقصد محاسن الحلو عندما وصف الشعب المصري بأنه هادئ مستسلم فقال عبارته التاريخية: إن الأسود إذا دخلت مصر تحولت إلى حملان! لكنها الضرورة، فمحاسن الحلو استطاعت أن تحول الأسود إلى حمير بفضل نقص الموارد والإهمال. يرحمها الله فقد أمتعت ملايين الأطفال في ثلاثين عامًا من الحياة القاسية مع الأنياب والأظافر والزئير والفحيح والعواء!

غابة من علامات الاستفهام !

ذهبت إلى المكتبة في شارع ريفولي بباريس. رأيت نفسي في المرآة كأنني مومياء فرعونية؛ فقد ارتديت كل ما عندي من ملابس صوفية.. ولففت دماغي ورقبتي. وكان لا بد أن أكشف عن وجهي لحظة لكي يعرفني السائق. وهي مخاطرة متهورة فقد صفعتني العاصفة ولسعني البرد وتلمست دبابيس في جانبي، وتكهرب جسمي كله؛ فلا طاقة لي ببرد القاهرة فما بالك ببرد باريس؟! ودخلت. وكشفت عن وجهي. وسألت: فين ماما؟

وهو سؤال يتكرر في كل مرة أجد نفسي في باريس. والغريب العجيب أنني أعرف أن ماما هذه قد ماتت من سنوات. ولكن في داخلي إصرار على أنها لم تمت أو تمنيت ألا تموت. وأنا لا أفتعل النسيان والسؤال عنها.. ولكن في داخلي مقاومة لا تنام لإنكار الواقع.. وأن تكون صاحبة المكتبة قد ماتت.. وأنني على يقين من ذلك. أما الدهشة على وجه ابنتها ففيها الكثير جدًّا من الأسى والحزن المزدوج عليها وعلى الذي لا يصدّق أنها ماتت.. أو لا يريد ذلك، ثم على وجهها هذا الشعور بخيبة الأمل! ويكون ردّ ابنتها في كل مرة: هل نسيت ما حدث لها؟ والحقيقة أنني نسيت. ودهشتي لا تنتهي؛ إذ

كيف أنسى وما المعنى؟ وساءلت نفسي: ولكن لماذا؟ لماذ لا أصدق؟ لم أجد إجابة عندي عن هذا التساؤل. وإنما يكون الجواب عادة أن أسرح إلى أيام كانت صاحبة المكتبة متعة تضاف إلى متعة الكتب. وكيف أنها اختارت عددًا من الكتب ووضعتها في أحد الأركان انتظارًا لحضوري مع أن هذا الحضور ليس منتظمًا ولا تستطيع هي أن تتوقعه.

وقد تمضي سنوات فلا أحضر إلى باريس ولكن تظل الكتب تتكدس بعضها فوق بعض: في الفلسفة والفلك والنقد الأدبي والأدب والتاريخ والسير الذاتية بلغات مختلفة؛ فلا أكاد أراها حتى تشير بإصبعها إلى مكان الكتب؛ فأذهب وأجد كل ما يعجبني. فلديها هذه المقدرة الفائقة على معرفة ماذا أحب وماذا أكره. إنها معايشة طويلة وفهم عميق ومودة ناعمة ودافئة تزداد مع الزمن.. كيف؟ لا أعرف. كيف هذا الدفء جاهز لا ينقص وإنما يزيد مخالفًا بذلك كل قواعد الصداقة والحب. إنه تكفير لكل ما اهتديت إليه في العلاقات الإنسانية التي تقوى بالقرب والاستمرار والإصرار. ولا شيء من ذلك عندي. ولكن لماذا عندها؟! ومن زمن بعيد قلت لها: أنتِ تحيرينني! وتقول: بل أنت مصدر حيرتي! وأسأل: هل من حلّ؟ وتقول: لا أجد ولا أريد ولن يكون هناك حلّ. فلا أصدق ولا أجمل من هذه الغابة التي نعيش فيها.. غابة من علامات الاستفهام والتعجب.. كأننا أنا وأنت آدم وحواء قد طردنا من الجنة لنحلم بها.. ثم إننا توارينا لا بأوراق التوت وإنما بأوراق الكتب.. وأقمنا على الرمال بيوتًا من كتب وأضأنا سماءنا بأوهام المستقبل البعيد.. والذي لن يكون قريبًا.. ما رأيك؟

اشرب : فقد دافعت عنك الدبابير!

إذا كنت من الذين يشربون القهوة كل يوم، فأنت واحد من أربعة آلاف مليون.. وإذا كنت تشرب الشاي فأنت واحد من ثلاثة آلاف مليون.. وإذا كنت مثلي تشرب القهوة والشاي فأنت واحد من ألفي مليون نسمة.. أما الذين لا مزاج لهم فلا يشربون لا القهوة ولا الشاي، فهم بضعة ملايين!

والقهوة شراب ينعش.. والذي ينعش هو مادة الكافيين» الموجودة في القهوة وفي الشاي أيضًا. وفي القرن الثالث عشر لاحظ أحد الرعاة في الحبشة أن الماعز إذا أكلت من نبات أخضر يرتفع عن الأرض ثلاثة أمتار، فإنها تظل طول الوقت تجري وترقص ولا تنام.. إنها شجرة البن.. وأول من تعاطاها الرهبان حتى لا يناموا.. ولما اكتشفوا القهوة، أقاموا لها محلات خاصة هي المقاهي. وقد ازدحم الناس في المقاهي، وانشغلوا عن العمل. وقد أغلقت المقاهي في مكة المكرمة سنة 1511 وفي القاهرة سنة 1534 وفي استنبول سنة 1554 وفي إيطاليا سنة 1660 والملك تشارلز الثاني أغلق ثلاثة آلاف مقهى سنة 1675 وكانوا في ذلك الوقت إذا وصفوا سيدة بأنها منحلة يقولون: إنها من هذا النوع الذي يشرب القهوة والشاي مرتين في اليوم!!

وهناك خطر يهدد الفنجان الذي في يدك، هذا الخطر جاء من إفريقيا وينتقل الآن إلى كل الدنيا.. فهناك حشرة صغيرة جدًّا تضع بيضها في حبات البن.. فإذا فقس البيض خرجت منه حشرات ضئيلة تتغذّى على حبات البن فإذا هي خاوية تمامًا. وهذه الحشرة الصغيرة جدًّا قد أهلكت ألوف الأفدنة.. وأفسدت ملايين الأطنان من البن.. وسوف يؤدي ذلك إلى ارتفاع سعر البن أو اتجاه الناس إلى الشاي.. أو تزييف البن في كل مكان!

والعلاج عادة يكون برش شجيرات البن بالمواد الكيماوية التي تخنق هذه الحشرة، وعيب المبيدات الحشرية أنها تقتل الحشرات، وتتسلل إلى البن.. ثم إلى الإنسان الذي يجد المبيدات في الماء والهواء واللبن واللحم والخضراوات!!

ولكن العلماء الإنجليز اهتدوا إلى علاج تقليدي آخر: علاج بيولوجي بدلاً من العلاج الكيماوي. وهو أنهم يطلقون نوعًا خاصًّا من الدبابير.. هذه الدبابير تأكل بيض هذه الحشرة.. أو تأكل الحشرات نفسها.. أو تضع بيضًا فوق بيض هذه الحشرة.. فإذا فقس بيض الدبابير أكل بيض الحشرة. وقد جرّب الإنسان ذلك الأسلوب مع بداية استعماره لأستراليا.. فقد توحشت الفئران وراحت تأكل الطيور وتهاجم الحيوانات والأطفال فأتوا لها بالقطط التي تقضي عليها، ولكن القطط نفسها توحشت فراحت تأكل الأرانب والطيور والأطفال، فأتوا لها بالكلاب التي توحشت وصارت تطارد الذئاب وتهاجم الأبقار والجواميس والإنسان.

فالإنسان أحدث خللاً في التوازن في عناصر البيئة؛ ولذلك عاد إلى تحقيق هذا التوازن.. فإذا كانت الفئران ضارة فالثعابين تأكلها.. وإذا كانت الثعابين ضارة فإن بيعها أكثر ضررًا.. وسوف تستخدم الدبابير حتى يظهر لنا ضرر آخر، حينئذ سوف نقضي على الدبابير ونترك الحشرات تأكل البن لأن هذا أهون كثيرًا من ضرر آخر!

يا أبناء الأرز كلكم : سيزيف !

في أساطير الإغريق أن البطل عوليس ذهب في مغامرات حول العالم، وغاب طويلاً، عشرين عامًا، وترك زوجته الجميلة بنيلوبة فتكاثر على بابها وتحت شباكها عشرات من الشباب يقولون لها: سيبك منه.. وهل معقول أن تضيعي شبابك من أجل رجل مجنون مثل زوجك!

ولكنها كانت على يقين من أنه سوف يعود سالمًا مخلصًا، كما أنها مخلصة له.. وكل يوم تقول لهم حكاية ورواية.. وأخيرًا اهتدت إلى حيلة قالت لهم: إنني أصنع بلوفر وإذا اكتمل البلوفر فسوف أختار من بينكم رجلاً! وكانت ما تصنعه بالليل تفكّه بالنهار، ولم يكمل البلوفر عشرين عامًا، حتى جاء زوجها وانقضّ على هؤلاء الشبان! والقصة تدل على صبر الزوجة وإخلاصها، وتدل أيضًا على الإصرار في أن تمضي في صنع البلوفر ليلاً ونهارًا دون ملل أو كلل! وكذلك فعل الشعب اللبناني في مواجهة الدمار والخراب، فالذى يهدمونه ليلاً يعودون إلى بنائه نهارًا وهم مصرون على الهدم والبناء معًا!!

وهناك قصة أخرى تقول: إن قضاة الإغريق حكموا على البطل سيزيف بأن يدفع أمامه حجرًا إلى أعلى الجبل، فإذا بلغ القمة انحدر

الحجر إلى السفح، فعاد سيزيف إلى رفعه مرة أخرى إلى القمة.. وإلى الأبد!!

ولم يشعر البطل بأن هذا العذاب سخيف ومُمِلّ.. بل إنه أراد أن يغيظ من عاقبوه، وكان يؤدى هذه العبقرية رافع الرأس واضح الابتسام.. كأنه أراد أن يقول: إن الذي يقوم به ليس سجنًا مع الشغل والنفاذ.. وإنما هي رياضة الصعود والهبوط.. يريد أن يقول لهم: إنهم أرادوه عقابًا، أما هو فأراده رياضة، أرادوا أن يحطموا رأسه، فرفعه إلى أعلى.. أرادوا أن يكسروا ساقيه وقدميه، فازداد رشاقة وحيوية فلا انتهت العقوبة ولا سيزيف عرف اليأس!

وكذلك فعل الشعب اللبناني.. فالمحلات التجارية التي تهدمها القنابل أو الصواريخ ليلاً، يقومون ببنائها نهارًا.. أو يعرضون سلعهم فوق الخرائب المجاورة لهم.. وكأن الحرب لم تفعل شيئًا.. إنهم لم يغلقوا دكانًا، ولكنهم فتحوا واحدًا آخر إلى جواره.. ربما التقى الذي يبني والذى يهدم على منتهى واحد.. أو في دكان واحد.. فإذا جاء الليل ذهب صاحب الدكان لينام تحت الأرض.. وذهب الرجل الآخر إلى سلاحه يهدم الخرائب مرة أخرى.. فإذا طلع النهار عاد التاجر إلى مكان مجاور وعاد المخرب إلى نفس المكان يحول الحجارة إلى تراب وهباب بعد ذلك!!

شيء عجيب أن تجد اللبنانيين الذين تحطمت واجهاتهم الزجاجية، يعودون إلى شراء واجهات أخرى ومن الزجاج أيضًا.. إنهم يرفضون الدمار ويرفضون الخراب ويرفضون الموت.. إنهم يواجهون القنابل بواجهات من زجاج، ويواجهون الصواريخ بإرادة من حديد!!

وليس بيننا أحد لم يحزن على الذي أصاب لبنان بأيدى أبنائها تجار السلاح والمخدرات والخونة والمرتزقة.. ولكن يسعدنا جميعًا أن يعود لبنان إلى ما كان عليه من جمال ودلال.. إلى المقاهي الصغيرة البديعة.. وإلى أندية الليل الباهرة.. وإلى البيوت اللبنانية الدافئة.. فليس في شرقنا العربي أحد مثل أهل لبنان في الذوق واللطف والكلام الحلو.. وأذكر أني كنت أختلف مع الناشرين اللبنانيين الذين زوَّروا كتبي وسرقوني.. ونختلف ونهدد بأن نذهب إلى القضاء.. نختلف على ألف أو ألفين من الليرات.. ولكن في الليل يقيم الناشر عشاءً يدعو إليه أجمل وألطف الناس ويتكلف العشاء أكثر من عشرة آلاف ليرة. كيف؟ إنه ـ كناشر ـ مصاص للدماء، ولكن ـ كصاحب بيت أو كإنسان ـ في غاية الذوق والكرم والكلام الحلو ـ كلامه وكلام زوجته وأولاده!

والله وحشنا لبنان الجميل الفخم اللذيذ.. فلبنان ليس له نظير في الشرق، بل وأجمل من كثير من بلاد الغرب.. وليس بيننا من لا يحمل له أجمل الذكريات وأبدعها وأبقاها..

إن سيزيف اللبناني قادر على أن يحقق المعجزات.. وقد بدأ في ذلك.. وكلها سنوات وتعود إلى أجمل ما صنع الله وما صنع الإنسان أيضًا!

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستــاذ
أنيــس منصــور

(أ) ترجمة ذاتية:

1 – في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2 – عاشوا في حياتي.
3 – إلا قليلاً.
4 – طلع البدر علينا.
5 – البقية في حياتي.
6 – نحن أولاد الغجر.
7 – من نفسي.
8 – حتى أنت يا أنا.
9 – أضواء وضوضاء.
10– كل شيء نسبي.
11– لأول مرة.
12– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13– الحائط والدموع.
14– وجع في قلب إسرائيل.
15– الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16– عبد الناصر – المفترى عليه والمفتري علينا.
17– في السياسة (3 أجزاء).
18– الدين والديناميت.
19– لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20– السيدة الأولى.
21– التاريخ أنياب وأظافر.
22– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
23– على رقاب العباد.
24– ديانات أخرى.
25– وكانت الصحة هي الثمن.
26– الغرباء.
27– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28– عزيزي فلان.
29– هي وغيرها.
30– بقايا كل شيء.
31– يا من كنت حبيبي.
32– قلوب صغيرة.
33– هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
34– إلا فاطمة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
35– رومولوس العظيم.
36– زيارة السيدة العجوز.
37– زواج السيد مسيسبي.
38– الشهاب.
39– هي وعشاقها.

** للأديب السويسري ماكس فريش:
40– أمير الأراضي البور.
41– مشعلو النيران.

** للأديب الفرنسي جان جيرودو:
42– من أجل سواد عينيها.

** للأديب الأمريكي آرثر ميللر:
43– بعد السقوط.

** للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
44– فوق الكهف.

** للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
45– الإمبراطور جونس.

** للأديب الفرنسي يوجين يونسكو:
46- تعب كلها الحياة.
** للأديب الفرنسي أداموف:
47- الباب والشباك.
** للأديب الإسباني أرابال:
48- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:
49- الحنان أقوى.
50- من أول نظرة.
51- طريق العذاب.
52- ألوان من الحب.
53- شباب.. شباب.
54- مذكرات شاب غاضب.
55- مذكرات شابة غاضبة.
56- جسمك لا يكذب.
57- الذين هاجروا.
58- غرباء في كل عصر.
59- أظافرها الطويلة.
60- هموم هذا الزمان.
61- زمن الهموم الكبيرة.
62- الحب الذي بيننا.
63- عذاب كل يوم.
64- كيمياء الفضيحة.
65- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:
66- الذين هبطوا من السماء.
67- الذين عادوا إلى السماء.
68- القوى الخفية.
69- أرواح وأشباح.
70- لعنة الفراعنة.

(ز) نقد أدبي:
71- يسقط الحائط الرابع.
72- وداعًا أيها الملل.
73- كرسي على الشمال.
74- ساعات بلا عقارب.
75- مع الآخرين.
76- شيء من الفكر.
77- لو كنت أيوب.
78- يعيش.. يعيش.
79- الوجودية.
80- طريق العذاب.
81- وحدي.. مع الآخرين.
82- ما لا تعلمون.
83- لحظات مسروقة.
84- كتَاب عن كتب.
85- أنتم الناس أيها الشعراء.
86- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
87- أوراق على شجر.
88- في تلك السنة.
89- دراسات في الأدب الأمريكي.
90- دراسات في الأدب الألماني.
91- دراسات في الأدب الإيطالي.
92- فلاسفة وجوديون.
93- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:
94- حول العالم في 200 يوم.
95- بلاد الله خلق الله.
96- غريب في بلاد غريبة.
97- اليمن ذلك المجهول.
98- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
99- أطيب تحياتي من موسكو.
100- أعجب الرحلات في التاريخ.
101- ماذا يريد الشباب؟
102- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

103- مدرسة الحب.
104- حلمك يا شيخ علام.
105- مين قتل مين؟
106- جمعية كل واشكر.
107- الأحياء المجاورة.
108- سلطان زمانه.
109- العبقري.
110- كلام لك يا جارة.
111- فوق الركبة.

(ي) المسلسلات التليفزيونية:

112- حقنة بينج.
113- اتنين.. اتنين.
114- عريس فاطمة.
115- من الذي لا يحب فاطمة؟
116- غاضبون وغاضبات.
117- هي وغيرها.
118- هي وعشاقها.
119- العبقري.
120- القلب أبدًا يدق.
121- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

122- ثم ضاع الطريق.
123- النجوم تولد وتموت.
124- هناك أمل.
125- أحب وأكره.
126- الحيوانات ألطف كثيرًا.
127- مصباح لكل إنسان.
128- أتمنى لك.
129- لعل الموت ينسانا.
130- اقرأ أي شيء.
131- ولكني أتأمل.
132- حتى تعرف نفسك.
133- الحب والفلوس والموت.. وأنا.
134- نحن كذلك!!
135- اللهم إني سائح.
136- كائنات فوق.
137- تعال نفكر معًا.
138- آه لو رأيت!
139- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
140- انتهى زمن الفرص الضائعة!
141- هناك فرق.
142- الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثاني.
143- يا نور النبي.
144- وأنت ما رأيك؟
145- حضارة الإوز والبقر.
146- حلمنا الجميل.
147- ضاع الجيل ضاع.
148- قالوا (الجزءان الأول والثاني).
149- وآخرتها.
150- من أول السطر.
151- أظافرها الطويلة.
152- القلب لا يمتلئ بالذهب.
153- تكلم حتى أراك.
154- الذي خرج ولم يعد.
155- ليلة في بطن الحوت.
156- والله زمان يا حب.
157- أجيال من بعدنا.
158- قلبك يوجعني.
159- شمعة في كل طريق.
160- أكثر من رأي.
161- معذبون في كل أرض.
162- تعالوا نفكر.
163- معنى الكلام.
164- اللعب غريزة منظمة.

165– في انتظار المعجزة!
166– وأنا اخترت القراءة.
167– من أجل عينيها.
168– يوم بيوم.
169– إنها الأشياء الصغيرة.
170– القلب أبدًا يدق.
171– الذين هبطوا من السماء.
172– الذين عادوا إلى السماء.

(ل) الترجمات القصصية:

173– رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
174– (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
175– (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
176– (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
177– (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
178– (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

179– الفلسفة الوجودية الألمانية ـ لإميل تسلر.
180– الفلسفة الوجودية الفرنسية – لجان جاك رسو.
181– معنى العدم عند هيدجر وسارتر – لجانيت أردمان.
182– مسرح العبث الفرنسي – لإتيان ماريبو.
183– الفيلسوف الروسي برديائف – لفيكتور لوزتسيف.
184– من كيركجورد إلى مارسيل – لأنطوان بابيف.
185– سيمون دبوفوار تلميذة رصينة – لفرنسواز روسلان.
186 – رسائلها إليه – لفرنسواز روسلان.
187– فاشلون لكن نبلاء – لجان ماري روار.
188– ما الميتافيزيقا؟ – لمارتن هيدجر.
189– الوجودية فلسفة إنسانية – لجان بول سارتر.
190– فلسفة حنا أرنت – تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر – لآدم برجشتاين.
191– كروتشه فيلسوف الحرية – لإيزابيلا دلورنتس.